الكاتب اليساري

المجلة المهجرية الوحيدة المتخصصة

يسارية – أكاديمية – فكرية – ثقافية - نقدية

إيلي الحاج
لا أحب الكذب

العدد رقم 76 :: شباط - فبراير 2023

تعنى بابداع الكاتب وحرية النص

Issue No. 76 :: February 2023

انقلاب تدريجي يستهدف الحرية الفردية

صفاقة الجاني وحياء الضحية

الناس هم الأغنية

الوعي الشعبي بين الحقيقي والزائف

إنهم ينقسمون ... إنها فرصتنا

-كليلة ودمنة- وثيقة غرضها المقاومة

الأمازيغية حين ترفض بهواجس عنصرية

معضلة خلط الدين بالدولة

الضوء الاحمر

وجه الخير في الدائرة المربعة

المخبرون

Al Kateb ISSN 1206 - 1425

كونوا شركاء في المحاولة

□ الكاتب مشروع ثقافي أكاديمي لبناني وعربي أسسه مجموعة من المثقفين والمبدعين اللبنانيين والعرب المقيمين في أوروبا، أمريكا الشمالية، والولايات المتحدة الأمريكية.

كانت تصدر الكاتب تحت إسم عيبال، ومن ثم البديل، إلى أن استقر الرأي على اعتماد إسم الكاتب عنوانا للمجلة.

تقصد مجلة الكاتب إلى إثارة السؤال الثقافي العربي في الواقع الراهن، محاولة منها برفده بصوت الجدل الحيوي، المفضي إلى السوية الثقافية، والمحفز إلى مزيد من التلاحم بين الثقافي – الفكري، بل وحتى السياسي في زمن أصبحت التحديات الثقافية أقرب إلى الزلزلة منها إلى الأخذ بالتي هي أحسن، ذلك أن أحوال الثقافات والمثقفين قد تبدلت وأصبحت رهن سيادة الطوائف والأحزاب، وأصبح المثقف أو أشباهه، والجاهل المتثاقف في زمن الفايسبوك يشترى ويباع في أسواق نخاسة الأنظمة والأجهزة والسفارات والغرف السوداء.

إنساننا اللبناني والعربي في الأوطان الأم، وفي المهاجر والمنافي، يجب أن ينهض، وثقافتنا ينبغي أن تتطور وتتوطد، ولابد أن نواجه الراهن ونستعجل أوان نضجه الطالع بالظفر. فكل إبداع هو كوة حرية، وكل فعل هو انعتاق، وكل تلاحم فكر إنساني هو زمن آت.

تمر حيوات، بيد أن حياة ممتلئة هي تلك التي تكتنز الابداع وتثمر الحرية، ولمجلة الكاتب فيها سويعة، لو عانقت أقلامكم واحتضانكم لها، ولا وقت يمر دون بشاراته.

يعمل فريق مجلة الكاتب وأصدقاؤها بشكل تطوعي من أجل:

- توثيق الثقافة والفن الانساني اللبناني والعربي، القديم والموروث، وتقديمه إلى المجتمعات الغير عربية بالوسائل الاكاديمية، عبر محاضرات ثقافية، وترجمة دراسات عن الثقافة والفن والتاريخ اللبناني والعربي، ومن خلال تنظيم معارض فنية وأمسيات موسيقية مع موسيقيين أكاديميين غربيين.
- يشجع ويتبنى فريق الكاتب أعمال الكتاب والشعراء والمبدعين اللبنانيين والعرب، أو المتحدرون من أصول عربية، ويتم نشر إبداعاتهم في مجلة الكاتب التي تصدر بعدة لغات، كما يتم التعريف بتلك الأعمال والابداعات للجمهور العربي والغربي سواء في الأوطان الأم أو المهاجر.
- يؤمن فريق مجلة الكاتب بحرية الفكر والتعبير، ويعتبرهما ركيزة أساسية لبناء المجتمع الديمقراطي اللبناني والعربي، الغير طائفي، والذي يسوده العدل والمساواة والقانون.
- يعمل فريق الكاتب مع المثقفين والمبدعين التقدميين الاوروبيين والعرب في التبشير بضرورة السلام في الشرق بالتوازي مع مقاومة التطبيع السياسي والاقتصادي مع دولة إسرائيل، ليس لأننا لا نؤمن بضرورة حل النزاع في الشرق، بل لأنه لا يمكن أن يكون هنالك سلام في ظل الاستمرار بسياسة الاعتقالات الجماعية، ومصادرة الأراضي، والاعتداءات العسكرية التي لا تنتهي من قبل إسرائيل على وطننا لبنان والدول العربية المجاورة.
- يغطي فريق الكاتب إصدار النسخة الورقية المطبوعة، وكذلك تكاليف الموقع الالكتروني عبر نشر بعض الاعلانات في كل عدد لمرسسات ثقافية وإنسانية وتربوية. إنما التكلفة الحقيقية هي في الجهد المبذول من قبل الفريق لاصدراها، وتبرعات الكتاب والمبدعين بانتاجهم الفكري.
- يعمل فريق المجلة دون مقابل وبشكل تطوعي.
- بانتظار أقلامكم ودعمكم الابداعي□□

فريق الكاتب

العدد
76

تصدر عن عيبال للثقافة البديلة
Published by: Ebal For Alternative Culture
Non Profit – غير تجارية

The Leftist Writer
A Cultural Review in
Arabic & Other Languages

الكاتب اليساري
أكاديمية ـ نقدية ـ ثقافية ـ سياسية ـ فكرية
مجلة يسارية تصدر بعدة لغات

Editor-In-Chief
Composer and Political Singer
Dr. William Nassar

صاحبها ورئيس التحرير
المؤلف الموسيقي والمغني السياسي
د. وليم نصار

سكرتيرا التحرير
د. فيوليت دمياطي
د. منهال حديدي

مستشارا التحرير
عز الدين المصري
لينا حوا

مدراء التحرير
جوزفين فرنجية
مارون سلوم
يزن الأحمد
Anna White

فريق الكاتب
حسن زيدان
سلاف العلي
كمال أبو عيسى
أنطوان الراسي
جريس سلامة
حمزة مرتضى
علي الحسن
Richard Bordeaux
Chantal Temin

استشارة قانونية
Legal Advisor
Katarina Theodorakis
كاترينا ثيودوراكيس

إعلانات
كارولين قحطاني
Vera Bellianti

مدراء الصفحة الالكترونية
نيرودا خوري
Patrick Laroc
Mary Quick

النسخة الالكترونية
https://al-kateb.com
E-Mail: alkateb@journalist.com
https://facebook.com/majallatalkateb

رقم التسجيل الدولي
ISSN 2563 - 3007

كلمة العدد

4
إيلي الحاج
لا أحب الكذب

المقال

5
الفضل شلق
انقلاب تدريجي يستهدف الحرية الفردية
6
ماجد ع. محمد
صفاقة الجاني وحياء الضحية
8
سليمان يوسف يوسف
أكذوبة ترحيب مسيحيي المشرق بالغزاة المسلمين كفاتحين ومحررين
9
نصير عواد
الناس هم الاغنية
10
د. مسعد عربيد
الوعي الشعبي بين الحقيقي والزائف
20
عدنان الصباح
انهم ينقسمون ... انها فرصتنا
21
د. ياسين الحاج صالح
الكارتل الأسدي وتحويل سورية إلى كَبتاغونيا
23
د. جلبير الأشقر
الصهيونية والفاشية ومستقبل فلسطين

تغريدة

31
نوال شق
نحن

النقد

19
د. نعيمة عبد الجواد
-كليلة ودمنة- وثيقة سياسية غرضها المقاومة
22
عذري مازغ
الأمازيغية حين ترفض بهواجس عنصرية
24
د. سامح عسكر
معضلة خلط الدين بالدولة...الأسباب والحلول
26
دلور ميقري
سواق الأوتوبيس: الإنسان والضباع الضارية

القصة

27
ريتا عودة
الضوء الاحمر
29
كمال جمال بك
وجه الخير في الدائرة المربعة

القصيدة

30
أمان السيد
نصيحة أمي
30
مهند جاسم الشباني
نار موقدة

واحات

7
سمرقند الجابري
ابتسامة سبعة وستون لوحة عراقية
28
فاطمة الحصي
في زداع عصفور
28
مختار سعد شحانة
المخبرون
30
لويس ياقو
لحية حسب الموضة

الغلاف: للتشكيلي الفلسطيني وائل ربيع
Cover: Painting by Wael Rabee', Palestine
تصميم وإخراج: زينب ريحان – بولاند صادق، Guy Reynolds
طبع من هذا العدد 1500 نسخة ورقية وزعت مجانا على المراكز الثقافية والجامعات والمكتبات العامة في الولايات المتحدة الأمريكية، أمريكا الشمالية، أوروبا، أستراليا واليابان

لا أحبّ الكذب

إيلي الحاج
لبنان

❑ أمام دهشتي تكرّرت حادثة وصف بعض أصدقائي لي بأنني "مسيحي"، باختصار شديد وكل ثقة كأنهم يعرفونني أكثر منّي. ومرّة - من زمان- أوضحت لأحد أصدقائي من أصحاب هذا الرأي أنني أبعدُ ما يكون عن هذه الصفة سواء بأفكاري أو سلوكي. وعندما لاحظت أنه لم يصدقني قلت له اصفعني بقوة الآن وسترى على الفور أنني لم أعد أحبك وتغيرت أخلاقي تماماً. كما يُحتمل أن أردّ لك الصفعة اثنتين وثلاثاً.

كان رأيه أن ردّ فعلي عند ذلك سيكون طبيعياً. وكان بإمكاني الخوض معه في قضية أنه ردّ فعل طبيعي حقاً ولكن غير مسيحي مطلقاً، وما هكذا يتصرف يسوع وإخوته. وهذا مَثَلٌ بسيطٌ عن لا مسيحيتي.

لا شك تعلم بأنني لا أنظر إلى النساء، الجميلات خصوصاً، بعيون الأطفال البريئة، قلت، كما أن كبريائي وكرامتي لا تسمحان لي بأن أبيع ما أملك وأوزع ثمنه على الفقراء وأعيش شحاذاً متشرداً مثل يسوع ورفاقه. إذاً لا أدير خدّي الشمال، وأحبّ النساء والمال. فوق ذلك كلما أحببت أحداً كنفسي ندمتُ على فعلتي وقلت "يجب ألّا تعيدها أبداً. أحِبّ لكنْ باعتدال، ليس كثيراً".

وماذا عن مبدأ القديس أوغسطينوس، "أحبِب وافعل ما تشاء"، الذي أخبرتني مرة أنك تعتنقه؟ قال.

- أخبرتك عنه مرّة حقاً؟ صدّقني نسيت وأستغرب أنك لم تنسَ. هذا جميل ويجب أن يكون مضى زمن طويل على ذلك. كم هو رائع أن صداقتنا قديمة وباقية. هذه تتمة لحديثنا إذاً: أنا أَفعَلُ ما أشاء يا صديقي، ولكن ليس كل ما أستطيع فعله.

هل أُحبّ كل الناس وبلا تمييز؟ لا أعرف. الأكيد أن أوغسطينوس توصل إلى هذا المبدأ في سياق فلسفة ومسيرة طويلة عريضة، شرحهما في مؤلفاته بناء على إيمان هبط عليه فجأة بعد طول شك ومعاناة. يذكّر بأبي حامد الغزالي الذي وصف الإيمان بأنه "نور يقذفه الله تعالى في القلب". نيّالهما أوغسطينوس والغزالي، أحسدهما على إيمانهما وأحسد من يومِن بأي شيء حتّى. الإيمان راحة للقلب في نهاية المطاف.

وأذكر أني ارتأيت نقل الحديث من السلوكيات إلى الأفكار، فأخبرته بأن رواية الولادة العجائبية، على سبيل المثال، امرأة تحبل وتلد من دون أن يمسّها رجل، هي خبريّة جميلة.

"لكنها واردة في القرآن"، قال بتعجّب وارتباك. فاستطردت أن القرآن أخذها طبعاً عن الأناجيل. لا يعني ذلك أنها حقيقية، بالنسبة إليّ على الأقل. وأدرك تماماً أن هذا الرأي يخرجني عن العقيدة لكنني لا أتوقف عنده، فهذه الرواية الجميلة ليست هي الأساس في رسالة يسوع.

قرأت مرّة بالفرنسية في كتاب بحثي تاريخي شديد التخصص أن المسيحيين الأوّلين بعد خمسين سنة على صلب معلّمهم ما كانوا سامعين بالولادة العجائبية والمغارة والمجوس ورحلة مصر. والأكيد أن هيرودس لم يرتكب مذبحة بأطفال بيت لحم. جاءت الرواية لاحقاً. إلا أنني عندما أشارك في قداس أتلو غيباً من دون انزعاج مع المصلّين "فعل الإيمان" الذي يختصر العقيدة المسيحية بالتشديد على أن يسوع هو "ابن الله الوحيد". ودوماً عندما نصل إلى هذه العبارة أذكر قوله "أنا ابن الله وأنتم أيضاً أبناء الله"، ويلوح لي أن المجامع ركزت على بُنوّة يسوع وأهملت وضعها في السياق العام، وأن على كل مسيحي أن يكون يسوع، وإلّا فإنه يكذب عندما يدّعي أنه مسيحيّ، وأنا لا أحبّ الكذب بل يفرحني الصدق في قول الأشياء كما هي.

أخبرني أنت الآن، هل تعتبر نفسَكَ مُسلماً، حقاً؟.❑❑

انقلاب تدريجي يستهدف الحرية الفردية

الفضل شلق
لبنان

❑ لبنان يسير في طريق الطغيان. فهل تُلغى التعددية الثقافية والسياسية؟ مهما قيل في مسألة المصارف ومصادرة أموال الناس، فالأمر هو إلغاء التعددية الاقتصادية والثقافية والسياسية. والمصادرة في تاريخنا كانت أحد أساليب السلطات الحاكمة.

غالبا ما كانت بطريق الإكراه والتعذيب. وعنوان كل ذلك عشوائية السلطة. هي عشوائية كما تبدو للمحكومين، وصادرة عن نوايا مسبقة عند الحكام؛ وقد صار واضحاً في لبنان أن الحاكم واحد وأنه يريد السيطرة على ما للآخرين من أموال ومراكز نفوذ رسمية. ليس عشوائياً مسلسل الجرائم السياسية التي لا نعرف شيئاً عن التحقيق بخصوصها، وإن جريمة العصر في المرفأ ومدينة بيروت يزاح القاضي المحقق واحداً بعد الآخر، وصولاً الى شرزمة القضاء. وقوى الواقع تسجن أهل الضحايا بينما المتهمون أحرار. والذي في السجن يُشك في إدانتهم، أو بعضهم على الأقل، وأن "مدنياً" يهدد "بقبع" قاضي، وإن من حاول التلفظ بالإدانة لم يبق على قيد الحياة. يمكن الحديث وحتما التوجّه باللوم، إن لم تكن الإدانة، لجميع الأطراف عدا طرف واحد، الى أن عيل صبر البطريرك ليقول أن المراكز المارونية الأساسية في الدولة مستهدفة، وإن الوضع بات لا يحتمل. عشوائية السلطة وارتكاباتها تشبه أي بلد ديكتاتوري في العالم، عربياً كان أو غير عربي، إسلامياً كان أم غير إسلامي. سمة الديكتاتورية الأساسية هي عشوائية من تحت وتسلّط من فوق. حق الفيتو باسم الميثاقية هو طريق للعشوائية. الانتخابات النيابية بقانونها الذي لا يفهمه أي مقترع، حتى الذين ساهموا في صياغته، هو أيضاً عشوائي الإجراء والنتائج.

الحديث عن الطائف كثير لكن معظمه نفاق. يُراد ويُعمل على نسفه. كان الأجدر الحديث عن الدستور إذ أن "الطائف" أنهى مهمته في إنهاء الحرب الأهلية، والتعديلات أدرجت في الدستور. أمام صعوبة تعديل الدستور في مجلس النواب، يراد العمل على تعديل الوضع اللبناني من خارجه بإنقلاب تدريجي. ليس كل تعديل دستوري حراماً، بل واجباً؛ ما يراد هو نسف الدستور من أجل وضع جديد يعكس موازين القوى. لا ننسى أن التحرير جاء بعد الطائف. وكل تحرير يفرض أن يكون لمن يحرر "حصة" تناسبه في الحكم، أو الحكم كله. وكانت مرحلة السنوات التسع تمهيداً لما سوف يكون المصير.

حكم الطائفة لا يعني أنها تحكم الآخرين كطائفة، بل أن منها نخبة تحكم وتتحكّم بالآخرين بما فيها الطائفة التي تنتمي إليها. الطائفة أيضاً طبقات. والطبقات العليا والدنيا تعم كل الطوائف. كل وظائف الدولة في لبنان يُراعى فيها التقسيم الطائفي. ومصالح القطاع الخاص تخضع لنظام من شبكة فساد لا تراعي إلا المال. يصير الحكم الطائفي مجرد عصبية لدين (لا يفهمه أتباعه في العادة)، وتبعية لكبش الطائفة الذي يغذي طائفته بالأوهام، وذلك كلما كان الفريق دينياً أكثر منه طائفياً. إذ الفريق الديني يوجّه اهتمامه الى الأمور الثقافية، خاصة الطقوس والرموز، أكثر من الأمور المادية، وإن اعتبر الجميع أن المال والجاه ضروريان لتسيير الأمور. ليس المطلوب خفض أهمية الجانب التعصبي أو الديني أو المذهبي في الطائفية، لكن ما لا يجوز إغفال الجوانب المادية الطبقية، إذ تتخذ الطبقة العليا أتباعها مطايا لمآرب اقتصادية وسياسية.

مع الأخذ بالاعتبار أن الجانب الايديولوجي الدعوي يلعب دوراً أكبر لدى الحزب الديني مما في الحزب الطائفي. والحزب الدعوي يعتبر أن السلطة وسيلة لفرض أوامر الله. لا يستطيع الحزب الدعوي ممارسة السياسة إلا بالتخلي عن بعض جوانب دعويته.

ليس هنا مناقشة أية عقيدة لأي حزب بل محاولة لتوقّع ما قد يحصل في حال استلم حزب ديني السلطة. إذ أن العقيدة الدينية ذاتها تفرض أن لا يمارس أي تسوية (نظرياً على الأقل) مع أي طرف سياسي. من يعتقد أن لديه تكليف من الله لا يستطيع التفريط به. وكل ممارسة للسياسة تفترض تفريطاً ببعض الحقيقة من أجل التسوية. كل تسوية فيها تنازل عن بعض حقائق كل طرف وإلا يستحيل الالتقاء في نقطة بين الموقفين.

ما كانت كل هذه المقدمات ضرورية لولا شعور كثير من اللبنانيين أن تعدديتهم في خطر إذا تم للانقلابيين ما أرادوا. والتعددية في لبنان تحمي الحريات بشكل أو بآخر. لقد فشلت الانقلابات في لبنان في السابق لكن انقلابا تدريجيا يقوم به حزب ديني سيضطر أصحابه الى فرض ثقافة جديدة تتنافى والتعددية المعهودة. وقد تعودنا في الأقطار العربية الأخرى أن تفرض أحزاب التحرير الوطني إرادتها بالقوة. فهي تعتبر أن ذلك مكافأة لها على ما أنجزته من تحرير؛ وهو إنجاز لا يقلل أحد، خاصة هذا الكاتب، من أهميته.

رغم كل ما أصاب اللبنانيين على جميع الأصعدة، ولا لزوم لتكرارها، إلا أنهم يحرصون على أن تكون لهم كرسي في المقهى للتحدث بصوت عالٍ. إذ تنتزع الحقوق واحداً بعد الآخر. يشعر اللبنانيون أن حرياتهم في خطر، وبدأ الخوف يتآكلهم. وقد رأينا الانتاج الفكري بدأ ينضب، أو بالأحرى بدأ يتباطأ وصولاً الى نقطة اللاعودة، وذلك استباقاً لما قد يحصل في لبنان من سلطة انقلابية ديكتاتورية كما حصل في أقطار عربية أخرى نتيجة التحرر الوطني.

هناك ما يهدد الحرية الفردية في لبنان عبر الدولة وغيرها من تنظيمات. ربما شكلت الطائفية (التعددية) درعاً في وجه التعديات على الحريات الفردية، لكن فرقاً دينية هنا، وأحزاب دعوية هناك، ومجموعات تمارس عبادة الفرد (cult)، وكلها تنتمي الى طوائف مختلفة، وتتحالف ضد عدو مصطنع، لكن فيها من هو أقوى من كل منها وربما أقوى منها جميعـاً. كل منها يستل سيف الردع في وجه الرأي الحر، بالأحرى الحرية الفردية، ولا أسهل من استخدام قدسية ما أو نص ديني لاتهام صاحب الردع بإهانة الشعور الديني لدى الآخرين. ليس القانون مرجعية عندهم بل ما يسمى الشعور الديني، الذي هو على كل حال لا تحديد له في الفقه أو في القانون. هي عشوائية القوة التي تمتلك منها فائضاً مادياً، ضد كل عقلانية أو نقد حتى ما خلا من التجريح.

ما يحدث هو سلخ اللبنانيين عما هم عليه (أو ما يجب أن يكونوا عليه). وذلك يتضمن الإفقار ومصادرة الأموال والممتلكات، والإكثار من المقدسات، وتدمير نصاب الدولة، وتذرير البيروقراطية، وطبع الدولة بالعشوائية، ونزعها عن القانون، وتعطيل الدستور، وإلغاء كل شرعية، وتدمير البنى التحتية المادية، والتعمية لتدمير البنى التحتية العقلية، وتزوير التاريخ، واصطناع التهميش، والنهب الشرعي، وإشاحة النظر الديني والأخلاقي عن نزع الحقوق، لا بل إنكار الحقوق، وإيقاظ الثأر، والاقتصاص ممن لم يرتكب جريمة، وتغليب الدين على الإيمان، والطقوس على الدين، والمذهب على الطائفة، والطائفة على الدين...الخ

هو تغليب الخاص على العام، والجزئي على الكلي، وسدنة الهيكل على المجتمع، والمجتمع على الضمير الفردي. ثم تغييب الضمير وراء حجاب الواجب؛ ثم يحول الواجب دون الفرد، والفرد دون الضمير، والضمير دون الأخلاق، والأخلاق الكاذبة دون السياسة، والسياسة دون الدولة، والدولة دون الإنسان. فضاء يخلو من الروح، وروح لا مكان فيها للنفس، ونفس هي مجرد تجميع لأعضاء بل أشلاء بشرية.

ربما كانت هذه حال البشرية، بحجة النيوليبرالية والرأسمالية، وما يتعلّق بها. لكن ما يحدث في لبنان هو أمر له بداية ولا ندري ماذا ستكون النهاية. البداية هي أننا قتلنا من يجب أن نحب، ولا نجد الآن ما نحبه، أو من نحبه. قال الحلاج:
أَنا مَن أَهوى وَمَن أَهوى أَنا نَحنُ روحانِ حَلَلنا بَدَنا

كان يتحدث عن الآخر الكامن فيه. ولم يعد للانقلابيين آخر. هذا بالإضافة الى تصفية من يعتبر خطراً ولو وهمياً.

الديمقارطية التوافقية وما يسمى الميثاقية هي إلغاء الآخر، ومن حيث ندري أو لا ندري، إلغاء الآخر هو إلغاء "الأنا". في كل ذلك إلغاء الحرية الفردية وإحالة الفرد الى كائن بلا ضمير أو ضمير مملى عليه دون أخلاق.

لقد استلبوا من معظم اللبنانيين كل شيء تقريباً ولم يبق إلا الضمير الفردي، والآن يريدون السطو عليه بحجة دينية أو تحرر وطني. يجيدون استعمال أسلوب التعمية. فلا لزوم لأن يكون سعر الليرة متعدداً إلا لكي لا يدرك اللبنانيون ما لهم وما عليهم. وتفريغ الدولة من المناصب العليا، خاصة رئاسة الجمهورية، والحبل على الجرار، طريق للعشوائية. وضرب ما تبقى من انتظام في المجتمع طريق للعشوائية التي تلزمها ازدواجية السلطة والتلاعب بالقضاء.

هو انقلاب على مراحل من أجل السيطرة وتغيير نمط العيش، والقمع الكامل للحريات الفردية. هو انقلاب يطرح على اللبنانيين سؤالاً:
هل يمكن العيش سوية، إلا بالقمع؟!❑❑

صفاقة الجاني وحياء الضحية

ماجد ع. محمد
سورية

❑ "السوط الذي يمسكم لاسعاً يمسُّ الرماد في مواقدكم أيضاً، ويمسُ الزيت في المعاصر"
(سليم بركات)

كما يعجز المرء عن مطابقة ما يأتي في سياق الكثير من الملاحم والروايات والأشعار بما يجري على أرض الواقع، كذلك الأمر مراراً ما يرى المرء نفسه عاجزاً عن شرح ما يحصل له، أو توضيح ما يجري بحقه، أو إبانة ما تعرّض له بالصورة المطلوبة، فيسلم ذلك الموجوع حينها سفينة المشاعر للصمت جراءما حصل له أو بعد أن صُبت عليه الفاجعة صبا، وذلك لاقتناعه بأن كل ما سيقوله لن يعبّر عما ألمَّ به؛ فعند الحالة الأولى ترى المرء محلقاً في فضاءات لم يجد لها مثيلاً على الأرض، وفي الحالة الثانية عندما يخفقفي إيضاح ما ألمَّ به واقعياً على الأديميرفع الواقعة حينها إلى السماء، ويُعلن استسلامه ويكف عن ذكر ما جرى له أو حصل أمامه.

وتعبيراً عما ألمَّ بأحدهم وربما بالمئات من أمثاله، رأينا بأن بعض ما يرد في المقروءات كثيراً ما نراه قريباً مما حصل لمن يحدثنا عما جرى له وهو فاشل في إيصال فحوى الرسالة إلينا، بما أن الكلمات لا تسعفه، والعبارات كلها دون ما سيقوله حسب تصوره، لذا فعندما نذكّره بالمثال الوارد في قصةٍ هنا أو قصيدة هناك، تكون المادة المستلة من ذلك المنتج الأدبي بمثابة الطاقة المنقذة لحالته النفسية المنهارة لحظتئذٍ.

صحيحٌ أن ما نقوله للأخ المكلوم لا يُعيد له كرامته المنتهكة، ولا يرجع إليه الذي سُلب منه، ولكن المكتوبَ على أقل تقدير يُخفف مِن حدة القهر الذي يعجز عن قوله لنا ولغيرنا، كما أننا حين نأتي بمثالٍ يُحاكي مجريات حياته فإننا نرفع عن كاهله ما كان فاشلاً في إيصاله لأصحاب الشأن، ونطمئنه في الآن ذاته بأننا عرفنا ما ألمّ به وأوصلناإلى بعض أصحاب الضمائر الحية نحيبه المكتوم.
وما ذُكر للتوِ هو تقريباً ما جرى لقريبٍ كان في قبو منزله مقيم،حيث كان يسمع دبيبهم، ويحس بكل تحركاتهم وهم ذاهبون آيبون في الطابق العلوي من بيته، يسطون على كل ما في منزله من المقتنيات، بينما هو في قبوه لا يجرؤ حتى على الاعتراض لما يجري لبيته في الأعلى، لأن الاتهام الجاهز ليس فقط بحوزة من يسطون آنئذٍ على محتويات منزله، إنما هو بحوزة جميع السُّراق واللصوص والمنتهكين والمتسلطين على رقاب الأهالي في تلك المرابع،بما أنهم قادرون فوق ما يفعلون بأشيائه على إهانته ليل نهار، وذلكوفق الذريعة التي قدّمها لهم جلاوزة سلطانهم المبجل لفعل ما يحلو لهم بالديار وأهله.

إذ بكل صفاقة قال الذي فرّ من القوة العسكرية التي هجمت على المنطقة في منتصف الشهر العاشر من العام الفائت بأنه ترك المال والحلال والممتلكات خلفه، بينما كل مَن يعرفه يعي بأنه جاء إلى تلك الديار ناهباً ممتلكات أهلها، وذلك بعد أن سمحت الجهة التي أتت به من ريف العاصمة عبر اتفاقية مع حلفاء النظام، وفحوى الاتفاقية التي جاءت به هو أن يترك مواجهة مَن قتل أهله ودمّر ممتلكاته ويأتي إلى هنا ليستولي عوضاً عما خسره هناك على أملاك الأهالي، ومن ثم يضايق هو وأمثاله أهل الدار قدر المستطاع، حتى يتركوا ديارهم وممتلكاتهم وكي يتخلوا عنها لهؤلاء الذين أفلتتهم على سكان المنطقة الجهة التي جلبتهم لهذا الهدف.

فمقطع الرجل المُغير على ممتلكات سواه والفار أوان الهجوم على تلك المرابع أعادني للسرد الخجول لبعض أبناء المنطقة الذين بكامل الخفر كانوا حين التواصل معهم يتحدثون عما تعرضوا له، وعما حصل لهم على أيدي مَن جاءت بهم رغبات المجبولين على البغضاء من أدوات الخاقان الجديد، وكيف أنهم كانوا يخجلون من سرد ما جرى لهم وما سُلب ونُهب منهم عيانا جهارا، بينما الجناة المستولين على ممتلكات الأهالي بكامل الصفاقة يتحدثون عن فقدان مسروقاتهم في الفضائيات.

فما ذكرتُه في تلك المحادثة مع الرجل الموجوع بخصوص الذي جرى لهمما أورده الشاعر اللبناني الراحل جوزيف حرب في قصيدة له تحت عنوان"كُلُّ شيءٍ" علّني أخفف عنه الوجعَ آنذاك سأوردهاهنا مجدداً، كما سأردف نص الشاعر اللبناني الراحل بنصٍ للشاعر السوري سليم بركات والذي جاء في سياق ديوانه "تنديد روحاني" وحيث يقول جوزيف حرب:
"قلتُ:
خذوا الذي تريدون من البيت لكم
فبعضهم من أخذ الشجر
وبعضهم من أخذ القمر
وبعضهم من أخذ المطر
وبعضهم من أخذ الصور
ما تركوا لي أي أثر
ثم مضوا يبنون بيوتاً بعدما
مِن ركن بيتي
أخذوا حتى الحجر".

ولا شك أن النص غير مبالغ فيه مقارنة بأخلاقيات بعض الذين تركوا منازلهم وممتلكاتهم خلفهم بعد أن تم سوقهم عبر الاتفاقيات الدولية إلى الشمال السوري،الذين بدلاً من التفكير بالعودة إلى ديارهم واستعادة ما أُخذ منهم بالقوة والإكراه راحوا يُعوضون خسائرهم هناك بالسطو والسلب والنهب على حساب الأبرياء هاهنا في هذه الجغرافية التي كانت وما تزال لأصحابها مصدراً للنقمة المتلاحقة.

عموماً فبعد أن تحدث جوزيف حرب في الأعلى عن الذين أخذوا "كل شيء" من ممتلكات سواهم ها هو سليم بركات يُطالبهم في الأسفل بإعادة ما نهبوه وسلبوه إلى أصحابه قائلاً:
"على الرحب أنتم.
ولكن أعيدوا الأحذية المسروقة،
والكؤوس المسروقة،
والوسائد المسروقة،
وأوعيةَ الطهوِ المسروقة،
واللحومَ المجلّدة المسروقة،
وزجاجات الجعة المسروقة،
والمخللات المسروقة،
والكلابَ المدللة المسروقة،
والخرائطَ الصوتية المسروقة،
والمناظيرَ المسروقة،
وترابَ الحدائق المسروق،
والأفرانَ المسروقة،
والرُّخامَ المسروق،
والجماجم المسروقة،
والجلود المسروقة،
والقُمامة المسروقة،
أعيدوا التعبَ الذي سرقتموه إلينا.
أعيدوا الصراخَ الذي سرقتموه إلينا.
أعيدوا الجراح التي سرقتموها إلينا.
أعيدوا الألمَ المسروق في القارورة لم تزل مُغلقةً.
أعيدوا ما صرفتم فيه أنفُسَكم جموعاً".

ويبقى الغريب في أمر الناهبين في عموم البلد الذي يتعرض للانهيارات الأخلاقية المتلاحقة منذ 11 سنة إلى جانب مسلسلات القتل والخراب والدمار أنه عند الحديث مع أي نفرٍ من قطاع الطرق والفالحين في عمليات النهب والسلب تلاحظ تسلحهم الجيد بالنصوص الدينية التي تعمل على حمايتهم حسب تصورهم يومَ توجّه إليهم أيّة تُهم تتعلق بالسطو والاعتداء، حيث سيسرد لك ذلك القائد المغير على وجه السرعة عشرات الآيات والأحاديث، ويدلق في حضرتك قصص العدل والأمانة والعشرات من روايات الفضيلة المشهورة عبر التاريخ لدى أتباع الدين الحنيف، وكل ذلك لتصدق بأن ذلك الوغد ليس سوى خروف مسالم مطيع، ولكنك إن أوردت له الجرائم التي ارتكبها والمنهوبات التي وضع يده عليها بغير وجه حق لن يقر بما ارتكب ولا سيندم على أي من موبقاته، إنما ومن باب الدفاع عن شناعة أفعاله سيعود إلى ذكر الآيات المتعلقة بالفتح ويعتبر بأن هذه

الديار التي ارتكب فيها الفظائع هي ديار الكفار، ويحق للمسلمين فعل ما يريدون بديار الكفرة، وإن قلتَ له بأن أبناء هذه البلاد مسلمون منذ ما يقارب 10 قرون سيلجأ عندها إلى ما لديه من العترة والعشيرة والأسلحة ليدافع عن شناعته ويواجه بها أي سلطة أو جهة تتهيأ لإدانته على شر أفعاله، عندها ستحاول تلك الجهة التي وجهت إلى الغازي اِتهاماتهاالتخفيفَ من وتيرة خطابها الاتهامي له وتسايره بالمسايسة بكونها غير قادرة على مجابهته بالقوة، أو محاكمته على كل ما اقترفت يداه رغم توفر كل الأدلة ضده، ومن ثم تعود إلى مخاطبته بالمفردات الدينية حتى يرعوي، وسترى عندئذٍ الآثمَ بكامل الوقاحة وهو يسرد عشرات المزاميرالتي تتضمن الأخلاق الحميدة والفضيلة أمام أعين كل الشهود على رذائله.

علماً أن من أهم ما يجب أن يمتاز به أصحاب الفضائل هو الميل الدائم إلى الخير وليس ارتكاب كل الشرور والموبقات ومن ثم ارتداء بُرقع الفضيلة، كما أن من صفات ممتلك الفضيلة أنه لا يحيد عن الطريق القويم بخلاف صاحبنا الذي سلك كل المنعرجات السلوكية ولم يسر على طريقٍ قويمٍ منذ أن اجتاح هذه الديار بناءً على رغبة جهة خارجية أرادته أداةًرخيصة لتُقهر به وبأمثاله أصحاب العرض والأرض؛ كما أن الشخص الفاضل هو شخص حسن الخُلق وطيب السيرة، بينما صاحبنا السارد روايات الفضيلة التي حفظها عن ظهر قلب لا يمتُّ للخلق الحسن بصلة، وسمعته القبيحة تلاحقه كروائح الفطائس التي تغزو مشاتل الورود والياسمين وتطغى بروائحها الكريهة على كل طيبات المكان.

وبودنا في الختام أن نورد شيء من فلسفة الفضيلة وناسه حتى لا يستمر المنافقون في سرد قصص الفضيلة كنوع من أسلحة الدفاع المسبق عن الذات والتشويش على المستمع إلى درجة تكذيب الوقائع التي أمامه كي يصدق ما يسمعمن ملفوظات الراوي الذي يحاول جاهداً جعل المستمِع إلى ملفوظاته يُخمن بأن السارد متوافق مع المسرود، بينما في الواقع قد لا يكون المحاضِرُ أكثر من حاويةٍ جميلة من الخارج بينما صندوقه يحوي كل قمامة أبناءالأزقة في جوفه؛ أماالفضيلة الحقة فهي التي يذكرها المؤلف الصيني هونغ ينغ منغ في أحاديثه عن جذور الحكمة، والذي يقول فيها: "إن صاحب الفضيلة لا يصبر على جرح حشرة ولا قتل نملة، ولا يسمح بأخذ خيطٍ غصباً ولا باستلاب إبرةٍ من غير رضى". ❑❑

MEMORIAL UNIVERSITY

ابتسامة سبعة وستون لوحة عراقية

سمرقند الجابري
العراق

❑ سيظل الفن سفينة ضوء تأخذ في رحالها محبي الجمال نحو عالم لا حزن فيه، هكذا استقبلت جمعية الفنانين العراقيين التشكيليين في بغداد صباح السبت 21 كانون الثاني 2023 عبر معرض الرسم السنوي، الذي ضم لوحات تشكيلية لسبع وستين فنانا عراقيا، بحضور مبهج من محبي الفن العراقي. أبواب جمعية الفنانين مفتوحة امام محبيها من الساعة 10 صباحا الى الرابعة عصرا، ويستمر المعرض الى الخامس عشر من شباط.

وفي حديث لرئيس الجمعية الفنان التشكيلي " قاسم سبتي": -

" في كل نشاط، يتحقق من تلك التي يتضمنها منهاج جمعيتنا السنوي يزداد طموحنا وتطلعنا الى نجاح أكثر اتساعاً. ومع بداية شهر كانون الثاني من كل عام، تتحول تلك التطلعات الى حقيقة من العمل الدؤوب والتنافس الجمال من خلال معرض اخترنا ان يكون متخصصا للرسم فحسب. معرض يتخذ في كل مرة نسقاً جديدا ومغايراً في الشكل والمحتوى تبعاً لما يقدمه الفنان العراقي كل عام.المعرض السنوي كما هو في السنة الماضية مختلفاً بالتوصيف، حين اقتصر على الرسم دون الاجناس الأخرى، وصولاً نحو التخصصية في العرض إذ سبقه معرضاً للخزف وآخر للنحت. وهنا تكمن المنافسة الجمالية القائمة على النوع الفني ذاته، وتفرز نوعاً يضاف الى كيفية الرسم العراقي. في هذا المعرض لا حدود تمييزية بين الأجيال التي ازدحمت جدران قاعة العرض وفضاءاتها بثراء منجزها واتساع مساحات اللوحة، ولا تصنيف في مستويات الأداء الفني أو على صعيد الاتجاهات المدارس الفنية، فكل فنان له طريقته في التعبير عما يراه ويشعره، احتفاء بعبق اللوحة بمديات أوسع.

نستطيع القول اننا في هذا المعرض، نلنا درجة الاطمئنان بأن التشكيل العراقي لا يمكن ان يتوقف، وان قوة الاعمال المعروضة ستضفي قيمة جمالية تبرر شعورنا بذلك، حيث تجاوز التجارب الجديدة من مختلف الأجيال هو تكريس لبعض التجارب السابقة في ضخ الدماء الجديدة الى المشهد البصري العراقي الذي يحلق بعيداً في فضاءات التجريب والابداع لاحتواء الجميع تحت خيمة المحبة الفائضة بفيوضات اللون النابض بالحياة في فضاء محدد هو " قاعة العرض" في جمعية الفنانين التشكيليين العراقيين".

بالنسبة لي ككل معرض، أحرص على حضور يوم الافتتاح، لكن التواجد المكثف للآخرين في قاعة العرض، وحركتهم واصواتهم الجذلة المرحة بتبادل التحية والاخبار، لا تمنحني الفرصة للتأمل في العمل وتحليله، لذلك اعمد للحضور في يوم اخر أضمن فيه انني سأكون مع اقل عدد من الزائرين، أرى واتمعن واتفحص وأتساءل وأفسر لأمنح نفسي فرصة رؤية كل تلك الأفكار والاحاسيس وسط الاستماع للموسيقى المنسابة من سماعات القاعة، ساعتها سأرى العالم الخفي ما وراء الألوان والاشكال الهندسية والمنحنيات اللامتناهية في كل لوحة على اختلاف المدرسة الفنية التي ينتمي لها العمل، مستحضرة اسم الفنان وانطباعاتي عن اعماله السابقة، وما قرأته من نقد فني في اعماله.

أكثر ما أسعدني في هذا المعرض، هي منطقة مغادرة الألم في اغلب الاعمال التي صارت تتخذ منحى التعبير الحر عن الامل والحب والفرح والتوثيق، وأن تمسكت بعض اللوحات بألوان البيئة العراقية الريفية والبدوية وحياة المدينة الصاخبة، كما لم يخل المعرض من صرخات احتجاج ضد جفاف الاهوار العراقية، وغلبة ثيمة الانسان الكادح.❑❑

أكذوبة ترحيب مسيحيي المشرق بالغزاة المسلمين كفاتحين ومحررين

❑ (شهادات عن سياسة التطهير الديني والعرقي بحق مسيحيي المشرق).

ظهور الإسلام، شكل بداية نهاية المسيحية في(المشرق)، حيث ظهرت ومنه انتشرت الى بقية مناطق العالم . مع بدء غزوات وحروب العرب المسلمين لفرض دينهم الجديد (الإسلام) ، بدأ ينحسر الوجود المسيحي في المشرق، حتى تلاشى كلياً من بعض المناطق وكاد أن يتلاشى من مناطق أخرى . وضع المسيحيين المشرقيين اليوم هو أشبه بـ"جزر معزولة" في بحر اسلامي هائج.

لتبيان أسباب وظروف تراجع وانحسار الوجود المسيحي في المشرق، نرد في هذا المقال (شهادات واعترافات) من مصادر مختلفة ، منها مصادر اسلامية، حول عمليات تطهير (ديني - عرقي) منظمة وممنهجة مورست عبر التاريخ ومازالت تمارس بحق مسيحيي المشرق (آشوريون . سوريون . أقباط).

المسيحيون السوريون، من أصول (آرامية - سريانية آشورية)، سكان سوريا الأوائل، عنهم سوريا أخذت اسمها وهويتها . مصادر إسلامية - الواقدي ، فتوح الشام - تحدثت عن أن (الجيوش العربية الإسلامية) الغازية لمدينة دمشق عام 634 بقيادة (خالد بن وليد) ،ذبحت أكثر من 40 ألف مسيحيي . (خالد بن الوليد) قال :" لن أرفع السيف عن رقابهم ، حتى أفنيهم عن آخرهم" . حاول مسيحيو دمشق التفاوض مع العرب الغزاة طالبين منهم وقف المذبحة وعودة العرب المسلمين (إلى بلادهم - شبه الجزيرة العربية) مقابل إعطائهم مالاً وطعاماً، إلا أن خالد بن الوليد أصر على استكمال فصول المذبحة حتى آخر مسيحي، قائلاً : " ما أَخْرَجَنا إليكم الجهدُ والجوعُ، وإنما نحن قوم نشرب الدماء ، وبَلَغَنا أنه لا دم أطيب من دم المسيحيين ، فجئنا لذلك". هذا هو (خالد بن وليد) ، السفاح المجرم، الذي تفتخر به الشعوب العربية الإسلامية وسمت باسمه (مدن ومدارس وجامعات).. معظم (قادة الجيوش الإسلامية) الغازية ، من خالد بن الوليد الى عمر بن العاص وصلاح الدين الأيوبي وصولاً إلى سلاطين وباشوات دولة الخلافة الإسلامية العثمانية، ارتكبوا مذابح و إبادات جماعية بحق المسيحيين(آشوريون... سوريون ...أرمن... أقباط) إبان غزوهم وأحتلالهم لـ(لبلاد ما بين النهرين . سوريا الكبرى. مصر-وادي النيل) . هذه المذابح تفند وتدحض ، أكذوبة "ترحيب مسيحيي المشرق بالغزاة المسلمين كفاتحين ومحررين لهم".

المؤرخ السوري (سامي مروان مبيض) أصدر كتاباً عن تاريخ دمشق بعنوان (نكبة نصارى الشام أهل ذمة السلطنة وانتفاضة 1860) جاء فيه : "في 7 تموز 1860، قدم مجموعة فتيان إلى حي باب توما المسيحي وبدأوا يستفزون الأهالي بالصراخ والكلام البذيء ورسم الصليب بالدهان الأحمر على الأرض أو على أبواب البيوت . بعد شكوى إلى الوالي العثماني، اعتقل الفتيان وأجبروا على تكنيس الطرقات، ثم تكرر المشهد في اليومين التاليين وبدأ الصراخ الطائفي من أهالي الفتيان بعبارات مثل: يا مسلمون يا أمة محمد، المسلمون يكنسون حارة النصارى، ويا غيرة الدين... تفاقم الوضع فجأة وهجم أهالي الأحياء المسلمة المجاورة بالمسدسات الحربية والسيوف والفؤوس على الحي المسيحي، فانسحبت وحدات الحماية العثمانية وبدأت مجزرة، قضت على ربع المجتمع المسيحي في دمشق، رافقتها أعمال اغتصاب ونهب وحرق للبيوت والأرزاق والمصانع والكنائس"... وينقل الكتاب عن الدبلوماسي البريطاني (سايرس غراهام) وصفه للمشهد بالقول: " في هذا المساء (26 تموز) مررت بالحي المسيحي... فلم أجد إلا بقايا منازل... الجثث كانت تملأ المكان... لقد تم حرق الحي المسيحي بأكمله ولم يسلم منه بيت واحد".

المؤرخ الإسرائيلي (بني موريس) في حوار مع صحيفة (هآرتس) الإسرائيلية ، كشف عن أدلة جديدة موثقة على ارتكاب الأتراك مذابح ضد كل من الأرمن والأشوريين واليونانيين والتي استمرت لثلاثة عقود، مستهدفة الوجود المسيحي في الفضاء التركي، وعن أن مصطفى كمال أتاتورك كان متورطاً فيها... المؤرخ (موريس) عمل تسع سنوات على دراسته الجديدة بالتعاون مع المستشرق (درور زئيفي)، من قسم الدراسات الشرق أوسطية في جامعة بن غوريون . تشمل الدراسة اكتشافات مثيرة. إذ يؤكد على أن المجازر التركية بحق هذه الشعوب امتدت 30 عاما ما بين عامي 1894 و1924، وصل عدد ضحاياها إلى ما بين 1.5 و2.5 مليون مسيحي، بينهم (أرمن و آشوريون ويونانيون). والمسؤولون عن ذلك هم الأتراك وشركاؤهم المسلمون، بما في ذلك (الأكراد والشركس والشيشان والعرب).

معمر سوري مسلم (يقيم في ريف حماة) . كشف لـ (لمجموعة من الصحفيين السوريين ضمت ٢٧ صحفي) في جولة لهم ربيع 2006 على المعالم الأثرية والسياحية في حمص وحماة، عن أساليب وطرق تطفيش المسيحيين من المنطقة والسطو على ممتلكاتهم. قال المعمر المسلم للصحفيين: "نحن بالأساس من الحجاز وأيام الخلافة العثمانية طلب الوالي من والدي وجدي القدوم لهذه المنطقة وزودونا بالسلاح (الخنجر والسيف) وأعطونا غنم ومال وقالوا لوالدي وللكثير من قبيلتنا والقبائل الاخرى، نُطلق يدكم على هذه المنطقة .. دوركم هو تطفيش سكان هذه المنطقة ومعكم كامل الصلاحية. وفعلا جئنا لهذه المنطقة. سكانها كانوا من الصليبيين(المسيحيين) الكفار الملعونين .... الحمد لله تكافئنا وامتلكت أراضي خصبة وجميلة على العاصي..."

الصحفي (غسان مقدسي) سأل المعمر: يا عم كيف قضيتم عليهم أعتقد هنا يوجد أكثر من خمس مائة بلدة وقرية كانوا كفار صليبيين(مسيحيين) ؟؟. رد المعمر " نأتيهم بالحيلة نريد أن نعمل لديكم يرحبون بنا ثم يعطونا غرفة نسكن بها ثم نتزوج مرة واثنتين وثلاث ونجلب عدد كبير من الأولاد . نترك خرافنا ترعى اراضيهم نضيّق الخناق عليهم نخطف بناتهم أو نقتل احدهم أو نفتعل مشكل من أجل غنم أو مرعى المهم الله أعاننا وقضينا على وجودهم .."... اضاف المعمر"شايف ها الحوش وها البيت كان لواحد صليبي (ابو ميخائيل) كان عنده بنت جميلة ودفعت بأخي وخطفها وأخذها لمنطقة اسمها البارة هناك ولم يدعها تشاهد اباها، حتى مات وحيدا في هذا المنزل وترك لنا نصف أراضي هذه البلدة وهذا كان سنة ١٩١٩.." .. حين قاطعه (غسان مقدسي) بالقول: يا عم لكن هؤلاء الناس هم سكان هذه الارض سوريون مسيحيون !! .. رد المعمر "لا تغلط أنت شب متعلم ومثقف لا يجوز أن تتكلم هكذا .. هذه الأرض أرض عربية أرض إسلامية وكل من يحمل الصليب هو صليبي كافر وعلينا طرده أو قتله من جميع بلادنا الإسلامية".

سياسة التطهير الديني والعرقي بحق مسيحيي المنطقة لم تتوقف عما حصل الماضي وبعد زوال الاحتلال العثماني والأوربي وقيام "حكومات وطنية"، بل هي مستمرة الى تاريخ اليوم بطرق وأشكال مختلفة. هذه شهادات من مسلمين كتبوا عن الراهن (المأساوي و المرير) لمسيحيي المشرق.

(محمد الدسوقي) يقول: "المسيحيون في مصر واقعهم شديد البؤس، فهم يهجرون من بلادهم، وتحرق دور عبادتهم، ويحاصر بيوتهم همج يطالبونهم بتسليم إبنتهم بدعوى أنها أصبحت مسلمة، أي ذل هذا، تخيلوا أن بشراً يحاصرون بيتك ويأخذ إ'بنتك ويقول لك إنسى لم تعد إبنتك، وعن أي مواطنة نتحدث، وفي أي بيت عيلة يجتمع كبار رجال الدين." ...

(عبدالله راشد) يقول: "المسيحيون سمحوا للمسلمين بالصلاة في كنائسهم. المسيحيون سمحوا بقراءة القرآن في برلماناتهم. المسيحيون احتضنوا الفارين من ظلم حكومات الإسلام في ديارهم. المسيحيون أطعموا المسلم الجائع والعطشان والجوعان ... فماذا قدم المسلم لهم؟؟ أباح قتلهم وسلب أموالهم وسبي نسائهم تحت صيحات الله أكبر".

نبشنا للتاريخ والتذكير بمآسي المسيحيين المشرقيين، ليس بهدف التحريض وإثارة الفتن الطائفية، كما يظن ويعتقد البعض، بل للتعلم من ذاك الماضي الأسود الأليم، أملاً أن لا تعاد تلك المذابح والجرائم الشنيعة ضد الإنسانية. كان يفترض أن يتحلى المسلمون (حكومات وشعوب ومهتمين) بالشجاعة في سرد وقائع الإبادات الجماعية بحق مسيحيي المشرق وإدراجها في (المناهج الدراسية) والاعتراف بأن أجدادهم المسلمين شاركوا في مذابح شنيعة بحق مسيحيي المشرق، بدل التعتيم عليها وإلقاء بالمسؤولية على السلطات العثمانية تارة وعلى الدول الأوروبية تارة أخرى. نكران الجريمة لا يقل بشاعة عن ارتكابها. نكران جريمة الإبادات الجماعية بحق مسيحيي المشرق، يترك الباب مفتوحاً لارتكاب المزيد منها واستمرار سياسة التطهير (العرقي والديني) بحق مسيحيي المشرق ،حتى آخر مسيحي في المنطقة.❑❑

النّاس هم الأغنية

نصير عواد
العراق

❑ من سوء حظ الصبيّة التي لا خالات ولا عمّات لها، تشكو لَهنّ اشواقها وتُودع عِندهنّ اسرارها. فصرامة التقاليد والعادات الاجتماعيّة بالعراق لا تسمح على الدوام بشكوى الحب في حضرة افراد العائلة من الدرجة الأولى، الأب والأخ الأكبر. الأمر الذي يدفع الفتاة إلى البحث عن طرفٍ ثالث قريب من العائلة، تروي حكايتها له. أحيانا، بسبب غياب العمّة والخالة، تستعين الصبيّة بالأم المنشغلة بهموم البيت وتربية الأولاد وسهر اللّيالي، ولكن الام ليست مستودع اسرار محايد كما العمّة والخالة. الأم تلعب دور الرقيب والمربي بالبيت، في حين أن الصبيّة العاشقة، الجالسة أعوام طوال تطبخ وتحيك وتجلي الصحون، لابد لها أن تشكو لأحد ما بين جدران البيت. لذلك تلجأ إلى وضع اسرارها، المشحونة بالأشواق والعتب واللّوم، عند العمّة. وعلى هذه الأخيرة أن تسمع وتحن وتعفي، كما في أغنية المطربة لميعة توفيق:

هذا الحلو كاتلني يعمّه .. فدوه شگد احبه وأرد أكلمه
أنتِ اشلون عمتي .. بيه ما افتهمتي
روحي كله يمّه .. يعمّه يعمّه

العمّة هنا جزء من الحدث الاجتماعيّ المشفّر، تتكدس بعباءتها في خلفية المشهد، لموازنة القلق الإنسانيّ الباحث عن الحب والاستقرار النفسيّ. جرى استحضارها بكلمات من تفاصيل حياتنا اليوميّة، تشعرنا بالألفة والبساطة والجلوس في حوش الدار، عبر لحن مسوّر بالحزن الشفيف الذي يبقي الاغنية حيّة ودافئة، يدندن بها الشباب على اختلاف أعمارهم ومستويات عيشهم. العمّة هنا هي الثيمة الذي تدور حوّلها حكايات الحب والهجر والأشواق، تارة تأتي كقافية شعريّة وتارة أخرى تأتي كلازمة موسيقيّة بعد انتهاء المقطع، وثالثة تأتي كحزمة أمل أو حزن يائس. وعلى الرغم من دأب العراقيّين على دفع الحب إلى خانة الحزن والمعاناة والقسوة، إلا ان هذا النوع من الاغاني قادر في بضع دقائق على تحويل سائق العربة او خباز الحيّ إلى عاشق كبير، يجدد بها روحه ويغسل بترديدها تعب النهار:

هذا الحلو كاتلني وأريده
معذب مهجتي والروح بيده
ما اصبر بعد عنه بعيده
گلبي اشلون اصبره .. ونار العشگ كبره
ما ينحمل همّه.. يعمّه يعمّه

إنّ دخول رابطة الدم مجال الأغنية العربيّة، باعتبارهِ نشاطا اجتماعيّا وثقافيّا منتشرا بين فئات المجتمع، ليس جديدا أو مكروها. الأمر الذي يشير إلى أن هناك حاجة كامنة في الغناء تستدعي حضور أفراد العائلة والأقارب، مثلما تستدعي الحبيب البعيد. والمتتبع لهذا الضرب من الفنون سيجد أن الأم لها حضور واضح في قصائد وأغنيات بلدان كثيرة، يتجلّى في المناسبات والأعياد، كما هو في مصر ولبنان، على سبيل المثل لا الحصر. في حين أن شعوبا أخرى ألقت بثقلها خلف العمّة والخالة لإيصال المشاعر والأفكار التي تحاصر الأفراد، مثلما هو بالعراق. في الحقيقة لا توجد قاعدة بيانات ثابتة بالأغاني التي تتناول أفراد العائلة، ولكن المتتبع يستطيع القول انها قليلة بالقياس إلى كمية المعروض من الأغاني بالشارع وبالمؤسسات الاعلاميّة. وقلّة المعروض هنا لا ينفي وجوده، ففي العراق غنّت المطربة وحيدة خليل (يمّه وحگ عيناچ ما انسه طيبچ) وكذلك المطربة زهور حسين غنّت (غريبه من بعد عينچ ييمّه) التي يشعر بها المنفيون أكثر من غيرهم، وهناك أغان أخرى تناولت موضوع الأم، خيّم عليها الحزن والألم:

غريبه من بعد عينچ ييمّه .. محتاره بزماني
يا هو اللي يرحم بحالي ييمّه .. لو دهري رماني
حاچيني ييمّه .. فهميني ييمّه

هذا اللون الحزين شائع بالعراق، فيه شجن وشكوى وحكاية، وفيه كلام دارج. يشير إلى ان الاغنية الشعبيّة فيها الكثير من الاحداث المتراكمة في عمق الذاكرة الاجتماعيّة. عمل الشعر، والموسيقى، على صقلها وإعادة تقديمها للبيئة التي صنعتها، محمّلة بمعاناتها ولهجتها وخصوصيتها. وفي نظرة سريعة على كلمات الأغنيّات التي تتناول أفراد العائلة، خصوصا المرأة، ستتكشف لنا بعض الأسرار الصغيرة التي ساهمت في صنع الظاهرة. ففي حين أن الأغاني التي تتناول العمّة والخالة سريعة الايقاع، ترتبط بالحب والأسرار والخروج على المألوف، وتتسم بالدلال والمحبة ونسيان الأخطاء الصغيرة، نجد ان كلمات الأغاني التي تتناول الأم قليلة الايحاء والايماء، وغالبا ما ترتبط بالتوقير والحزن والحنين. بسبب ان العلاقة بالأم عميقة وراسخة، يحتاجها الأولاد والبنات في كافة مراحل حياتهم. ينبغي القول هنا، مرة أخرى، ان تنوّع موضوعات وأحداث وشخصيّات الاغنية العراقيّة لا يقلل من حقيقة انها منظومة حزن عميقة، حتى وهي تصوّر تنوّع فصول السنة الموصوفة بالمطر والورد والشمس والطين. هيمنة الحزن على هذا اللون من الغناء مرده ليس فقط تاريخ الحزن القديم في المجتمع العراقيّ، الممتد من اساطير السومريّين وحداء القبائل المهاجرة ودوامة الحروب التي لا تنتهي، بل وكذلك من سياق اجتماعيّ مهيّمن جعل الام مفردة مسوّرة بالقداسة، لا يمكن على الدوام وضعها في قوالب الرقص والفرح. وهذا ليس حكرا على الأغنية العراقيّة، ففي مصر يمكن تلمس ذلك في اغنية "ست الحبايب للمطربة فائزة أحمد منتصف القرن الفائت، وفي اغنيتها "يمّه القمر عالباب" التي كتب كلماتها الشاعر مرسي جميل عزيز، ولحّنها محمد الموجي. الرحابنة بلبنان كذلك غنوا للأم "يمّه الحلو ناسي الهوى يمّه" وهي أغان فيها الكثير من الدفء والحنان، أغان متصالحة مع المعاناة والعذابات، يمكن سماعها من دون عض الشفتين. صحيح أن هذه الأغاني ارّخت لفترة وجيل منتصف القرن الماضي، إلا أن اصالتها من جهة، وبطء التطورات الاجتماعيّة والاقتصاديّة في بلداننا من جهة أخرى، ساهم ببقائها في الذاكرة الاجتماعيّة، عبر إعادة توزيعها وغنائها على ألسنة الكثير من المطربين المتأخرين.

إن بقاء الأغنية في الذاكرات وعلى الألسن ليس حكرا على موضوع دون غيره، فذلك مرتبط بأغراضٍ اجتماعيّة وثقافيّة متباينة. كذلك لا يوجد ما يحدد الأقرب للصبيّة، العمّة أو الخالة، على الرغم من كثرة الأمثال والأقوال التي تتحدث عن أن الصبيان أقرب من أخوالهم وأن الصبايا أقرب من عماتهن. في العراق نجد الذاكرة الشفاهيّة قد حفظت للخالة انها تصغي أكثر مما تنصح، وأنها صندوق الهدايا والاسرار، وأن حضورها يسمح للصبيّة بعبور بعض الخطوط التي تحدّدها العائلة. الخالة فيها رائحة الام وملامحها، ولها مكانة مختلفة في قلب الصبيّة، فيها الكثير من الالفة والمحبة وحلوى الطفولة، تزداد أهميتها في الازمات العابرة التي تحتاج حلولا سريعة. ونجد ان المطربة زهور حسين غنّت للخالة مثلما غنّت للام (خالة شكو شنو الخبر دحچيلي) إنّ استدعاء الحبيب عبر حضور الخالة شكّل خروجا على رتابة النصوص التي ألّفها كتّاب الأغاني عن الحب، يذكّرنا بتلك القصائد التي تستحضر الحبيبة عبر أشياءها اليومية؛ صائغ حُليّها، خيّاطة ملابسها، السوق الذي تتسوّق منه، مشط شعرها الذي لا تجاريه المخيّلة. بعض كلمات الأغاني القديمة كشفت عن أن الصبايا هن أكثر من يُودع أسراره عند الخالة، ولذلك جاءت الشكوى على لسان نسوة عراقيّات جسدن بشكل راق تلك المعاناة. ولكن هذا لا يمنع بعض المطربين الرجال من تأدية تلك الأغاني، ثم يردّدها كثيرون بعد ذلك:

خاله اشلون بيه ما دريتي.. ما الومچ يخاله شما حچيتي
انتِ اللي گضيتي العمر راحه.. وما شفتي الملامة ولا هويتي
شيصبر العاشگ يا خاله.. شيصبر العاشگ يا خاله

لا يغيب عن القارئ اننا نتحدث بشكل عام عن أغانٍ مألوفة اخذت حقها في الشارع العراقيّ، ولكن هذا لا يقلل من حقيقة أن ضعف المؤسسات وغياب شركات تسجيل الأسطوانات، في بدايات القرن الفائت، دفع بأغانٍ شعبية كثيرة إلى خانة النسيان. بقي بعضها مجهول النسب مثل (يا گهوتك عزاوي، چلچل عليه الرمان، افراگهم بچاني...) غنّاها كثيرون وعزفها موسيقيون سماعيون، ولكن لا تأكيد على نسبها. وما زالت هناك حكايات تردّدها الذاكرة الشفاهيّة عن أغانٍ كُتبت ولُحنت وغُنيّت في بضعة أيام، قبل ان تنتشر في المقاهي والاعراس وليالي السَمر، في إشارة إلى ان للأغنية حضور تلقائي ومهم في حياة الناس اليوميّة. وهذا لا يقلّل من حقيقة ان الظروف التي رافقت ظهور بعض الاغنيات ليست سهلة او خالية من مخاطر النبذ والنقد، فالبدايات دائما صعبة ومعقدة، لكن الأوائل استطاعوا تقديم اغنية تعبر عن ذاتهم ومجتمعهم. كانوا أشبه بقبيلة مجهولة من الهواة صنعت اغنياتها ورحلت، تضج مضامينها بدراما حب وعتب وحنين، تنشد بعث السعادة في قلوب الناس. كثير من هذه الأغاني الشعبية، التي حافظت على بساطة الحياة، والتي جرى وضعها لاحقا في خانة الفلكلور، نشأت في مناخ شعبيّ لم ترهقه بعد الحروب والصراعات الاجتماعيّة والطائفيّة. أغان قصيرة سهلة الحفظ، وضعت جملها اللحنيّة في قوالب متقاربة الشكل، لها موضوع محدّد، تبدأ به وتقفل به، غالبا ما يكون الموضوع نسائي، يخوض في هموم الحب والهجر. فلطالما كان الحب أرق وأبهى الموضوعات، حتى من دون سبب واقعيّ. ومع ان الكثير من العراقيّين لم يطرق الحب قلبهم، إلاّ ان ذلك لا يمنع من حفظهم أغاني الحب عن ظهر قلب، لتكون مصدر لذة وعذاب مَتعيّن. واللافت انه كلما طال أمد الحرمان من الحب، أو تاه أصحابه في دروبه، زادت العلاقة بالأغاني، وصار كلّ مهموم يغني على طريقته، يضيف من عنده أحيانا كلمات إلى نص الاغنية، يطمح بها ان يكون من المغنين، ويأمل بحكايةِ حبٍ قادمة.❑❑

الوعي الشعبي بين الحقيقي والزائف

د. مسعد عربيد
فلسطين

❑ شكّل الوعي وإشكالياته قلقاً لدى الفلاسفة والمفكرين على مدى العصور. وشغل في القرنين الأخيرين فلاسفة كثر نذكر منهم، دون أن ندخل في مناقشة أفكارهم ونظرياتهم حول الوعي، هيغل وديكارت وهوسرل ونيتشه وكارل ماركس وغيرهم.

أمّا في الواقع العربي، فثمة حديث لا يتوقف عن "الوعي" و"الوعي الشعبي" وإشكالياته في الحياة الثقافية والسياسية العربية. ولعل أهم ما يدور الحديث حوله هو تزييف الوعي وتشويهه كونه أحد الأسباب الجذرية لتراجع الشارع العربي ودوره في التغيير الاجتماعي والسياسي المنشود. وهذا بدون شك من أهم معضلات وإشكاليات الحياة العربية المعاصرة.

سأوزع هذه الدراسة على عدة أجزاء: أقدم في البداية مدخلاً لتعريف الوعي ومفاهيمه ومستوياته واستخداماته المختلفة في الفكر والسياسة والأيديولوجيا، قبل الولوج إلى مناقشة أهم أشكاله مثل الوعي السياسي والطبقي والديني، وصولاً، في خاتمة هذا البحث، إلى المسألة الأهم وهي التمييز بين الوعي الحقيقي والزائف والكشف عن تزييف الوعي وآلياته وآثار ذلك على الوعي الشعبي العربي والحياة السياسية والثقافية العربية.

تعريف الوعي

دعونا نبدأ من تحديد مفهوم الوعي .

هنا نجد أن الحديث عن الوعي يدور في فضاءٍ رحب من المفاهيم والدلالات، لذلك سنركز على تلك التي تصبُّ في الغاية المتوخاة من هذه الدراسة وهي: التمييز بين الوعي الحقيقي والآخر الزائف، كي يتسنى التخلص من المفاهيم والقناعات والشعارات الزائفة لدى المواطن العربي ويجري التأسيس لوعي حقيقي جذري وثوري قادر على الاضطلاع بالمهام الثقيلة والتحديات الجسيمة التي تحملها هذه المرحلة من تاريخنا. ويتطلب تحقيق هذا الهدف تبسيط مفاهيم الوعي المركبة والشائكة وتقريبها إلى ذهن القارئ، ومن ثَمّ التأسيس على هذه الأرضية لتطوير الوعي الشعبي العربي واستعادة دوره في صنع حاضر شعوبنا ومستقبلها. لأن ما يهمنا هنا هو التركيز على مفهوم الوعي ودوره في المستوى الشعبي (فردياً ومجتمعياً) في سياق النضال من أجل التحرر الوطني/القومي والتغيير السياسي والاجتماعي التي تتسم بها المرحلة الراهنة، وهو ما يتضمن على وجه الخصوص الوعي الاجتماعي (الطبقي) والسياسي (القومي/الوطني).

وعليه، لن تتناول كافة أشكال الوعي وأصنافه والتي تتجاوز في أبعادها وقضاياها العديد من الكتب والمؤلفات، ولن نسعى إلى عرضٍ شامل لمدلولات الوعي وتعريفاته ومستوياته التي تتعدد وتدخل في العديد من المجالات النفسية والاجتماعية والسياسية والفكرية والفلسفية.

ومن المنطلق ذاته لن نتطرق إلى الوعي التخصصي الذي يحققه الأفراد في حقول تخصصهم المهني مثل العلم والطب والتكنولوجيا أو الفن والأدب وغيرها.

لعل أبسط تعريف للوعي هو أنه الحالة العقليّة والإدراكية التي يتم من خلالها إدراك الواقع عن طريق اتّصال الإنسان واحتكاكه مع المحيط الذي يعيش فيه، سواء كان هذا الواقع ملموساً أو محسوساً، بما في ذلك إدراك العلاقات الشخصية والاجتماعية والإنسانية التي تتفاعل مع هذا الواقع وتتأثر به.

هذا التواصل مع البيئة هو الذي يخلق لدى الإنسان حالة من الوعي بما يجري من حوله، ويمنحه القدرة على إدراك الأمور وتقييمها. ومن هنا يمكننا القول بأنّ الوعي مرتبط بالطبيعة والعقل (وبالتالي بالعِلْم) ارتباطاً قوياً، وأن هذا الأخير على تواصلٍ مباشرٍ مع البيئة المحيطة به، ومن خلال ذلك يتمكن من تكوين الآراء والأفكار وإتخاذ المواقف حول القضايا المختلفة وفق ما يقتنع به. وهنا يكمن دو ر الوعي (والشعور والإدراك) في ترابط الفكر مع حركة الواقع وفهم إشكاليات الحياة والمجتمع والتعامل معها.

هكذا، وبالمحصلة، نصل إلى أن الوعي هو المحصول الفكري الذي ينضوي عليه عقلُ الإنسان وقدرته على قراءة المعلومات والمعطيات وفهمها وصولاً إلى تكوين وجهات النظر المختلفة والمتعلقة بالقضايا التي يعايشها بكافة مستوياتها: الفردية والاجتماعية والسياسية والفكرية والإنسانية. ولعل الأمثلة التالية توضح ما نريد أن نقوله.

- ففي مستويات الوعي هناك، على سبيل المثال، الوعي الخاص للفرد (وهو وعي فردي)، والوعي الجمعي الذي هو اجتماعي وعام. ولا شكّ أن هناك أيضاً الوعي العفوي والطبيعي للجماهير. وكثيراً ما نجد تفاوتاً بل تناقضاً وتضاداً بين هذه المستويات.

وهنا لا بدّ لنا أن نتوقف عند التمييز بين هذيْن المستويين من الوعي: الفردي والجَمْعي، حيث يعمد المنظور الرأسمالي إلى الفصل بينهما فصلاً تعسفياً: بين المجتمع والذات، والجماعي والفردي، بين الحياة العامة والخاصة. والحقيقة أن الفرد، في هذا السياق، لا يعنينا بالمعنى المطلق، بل ككائن اجتماعي وجزء من العلاقة الاجتماعية حيث تشكّل مصالحه وحقوقه ومطالبه جزءً من مشروع التغيير والنضال الاجتماعي والطبقي لتحقيق الحرية والعدالة الاجتماعية.

بالإضافة، فإن أهمية الوعي الجمعي تنبع من كونه المُوحِد والضامن للفعل الشعبي/الجماهيري، ومن دوره في ترسيخ الأهداف والثوابت الأساسية للنضال الاجتماعي والطبقي ومصالح الأكثرية الشعبية (الطبقات الشعبية) وتأصيل فكرة الهوية والمقاومة. وكمثال على ما نقصده، نذكر مناهضة كافة أشكال الاستغلال الطبقي والاجتماعي (العدو الطبقي)، ومقاومة العدو الوطني والقومي، كما هو حاصل في الحالة العربية، مقاومة العدو الصهيوني المحتل ومناهضة التطبيع معه ومقاطعة منتجاته ومنتجات الدول الإمبريالية والشركات الرأسمالية الغربية التي تدعمه وتوفر له مقومات الاستيطان والاحتلال والعدوان.

- وفي أشكال الوعي، نجد على سبيل المثال، الوعي الطبقي والفكري والسياسي والديني وغيرها. والتي سنعود إلى مناقشتها لاحقاً بشيء من التفصيل.

□ ومن حيث استخداماته وتوظيفه في خدمة غايات سياسية والاجتماعية وأيديولوجية، نجد ألواناً متباينة من الوعي الإيديولوجي والبراغماتي والسياسي وغيرها.

بعض أصناف الوعي

يُصنّف الوعي، وفقاً لمدلولاته المتنوعة من مجالٍ إلى آخر، إلى عدة أصناف أو أشكال. وسوف نناقش في الأجزاء التالية من هذه الدراسة ثلاثة أشكال من الوعي نرى أنها الأكثر أهمية لأنها تلعب الدور الأبرز في تكوين الوعي الشعبي والتأثير به وهي: الوعي الطبقي والسياسي والديني. ولكن قبل ذلك نعرض باقتضاب بعض أصناف الوعي التي تتداخل فيها المستويات الفكرية والفلسفية والسيكولوجية لما تعود به من فائدة على القارئ.

- الوعي العفوي التلقائي: أي ما يرافق أفعال الإنسان وأفكاره وما يتعلق بأداء نشاطات معينة، دون أن يحتاج (الإنسان) إلى مجهود عقلي كبير يعيق أو يؤثر بقدرته على التفكير بأمور أخرى.

- الوعي التأملي: يختلف عن الوعي العفوي التلقائي، في أنّه يتطلّب جهداً ذهنيّاً ويحتاج إلى قدرات عقليّة لاستحضار الأحداث الماضية وإعادة تصورها وفهمها والتعبير عنها.

- الوعي الحَدْسي: ويتمثل في إدراك الشخص للأحداث والأشياء أو المفاهيم والمعلومات والمعارف، دون أن يستطيع التعبير عنها وتقديم شرح واضح لها، لأنه يدركها بحدسه فقط.

- الوعي المعياري الأخلاقي: في هذا المستوى من الوعي يستطيع الفرد أن يكوّن أحكاماً وتقييمات للأشياء والطبيعة من حوله، وكذلك للأحداث والأشخاص، كي يشكّل موقفاً منها تبعاً لمبادئه وقيمه وأخلاقه.

- الوعي الفكري/أو التفكيري: أي تفكير الإنسان بذاته وبما حوله من خلال أشكال من الوعي عديدة ومتداخلة فيما بينها.

- وهناك ايضاً الوعي من منظور الطب النفسي وما يعتري المريض النفسي من اضطرابات وأمراض نفسية تدور حول شخصيته وذاته وما يعتمر فيها من مشاعر وأحاسيس.

استخدامات الوعي

للوعي تصنيفات متعددة من حيث استخداماته وتوظيفه لغايات اجتماعية وسياسية وأيديولوجية. فمن الأساليب الشائعة في السياسة والمجتمع، نجد أساليب تسييس أو توظيف الوعي الجَمْعي لخدمة غايات سياسية أو أيديولوجية عبر استخدام وسائل الاقناع أو التخويف والترهيب أو الإغراء من أجل تزييف الحقائق وقلب الوقائع والأحداث وتفسيرها. وفي كثير من الأحيان تكون هذه الأساليب مبطنة لا يسهل على المواطن العادي الكشف عن فحواها وغاياتها.

فلو أخذنا، على سبيل المثال، ما يُسمى الوعي الواقعي (ويُسمونه أيضاً البراغماتي أو العملي)، فإننا نجد أنه يشير إلى المهارات الاجتماعية في التعامل مع الآخرين وفي انتقاء الأساليب الملائمة في الخطاب والممارسة. كما ينطوي هذا الأسلوب على كيفية استخدام قواعد اللغة ومفرداتها والدلالات الكامنة وراءها للوصول إلى أغراضه في التأثير على المُتلقي سواء كان قارئاً أو مستمعاً أو مشاهداً. وهنا تكتسب البراغماتية معنً محدداً في سياق معين في الزمان والمكان، وفي صياغة أمر ما أو موقف ما وكيفية قوله أو كتابته. وكثيراً ما يتضمن هذا الخطاب أساليب مبطنة وغير مباشرة مثل التحدث ب "التلميح" أو "الاقتراح" أو "الإيحاء" وغيرها من الأساليب. كما يتضمن تطوير القواعد البراغماتية واللغوية كي يتسنى استخدام اللغة وإنشاء لغة مناسبة للحالات التي يتعامل معها أصحاب الرأي من سياسيين ومفكرين ورجال الحكم والدولة وغيرهم. وقد ساهم هذا كله في تطوير نمطٍ آخر من الوعي: الوعي الخطابي أو التعبيري discursive consciousness والذي يشابه الوعي البراغماتي من حيث القدرة على استخدام اللغة والمفردات أو صياغة الكلام.

ليس هذا الحديث طرحاً نظرياً أو مجرداً، بل هو واقع نلمسه ونعيشه كل يوم في حياتنا السياسية والاجتماعية والثقافية، حيث يهندس الحكام والطبقة المهيمنة سياساتهم ويصيغون خطابهم ويتلاعبون بشعاراتهم في تزييف وعي الجماهير والتحكم بأعناقنا، ومعهم أصحاب المصالح والفئات الاجتماعية والاقتصادية المتنفذة في صنع القرار، وجيش المأجورين من مثقفين وكتّاب وإعلاميين.

فيزيولوجيا الإنسان والوعي

أ) دور الدماغ البشري

الوعي خاصية من الخصائص الجوهريّة التي تميز الإنسان عن بقية المخلوقات الحيّة والأشياء الأخرى. وقد أثبتت البحوث النفسية والفيزيولوجية - وخصوصاً تجارب عالم الفسيولوجيا الروسي إيفان بافلوف (1849-1936) ونظريته المعروفة ب"الاستجابة الشرطية" أو "التعلم الشرطي" - أثبتت أنه دون العمليات الفيزيولوجية التي تجري في الدماغ البشري المادي يستحيل على الإنسان تنفيذ أو أداء أبسط اشكال النشاط الفكري والعقلي والنفسي. وعليه، يمكننا القول إن الوعي هو شكلٌ أو درجة من استجابة الدماغ البشري لمؤثرات وتحديات الواقع، أي أن الوعي هو نتاج تأثيرات الواقع المادي والملموس، وهنا يكون دور الإنسان في التقاط هذه المؤثرات والأحداث (حصيلة هذا الواقع) والتأثر بها والتأثير فيها.

وما نقصده ب"الواقع" وتأثيراته في هذا السياق وفي معناه الأوسع والأشمل، هو كل ما يحدث من حولنا من أحداث ووقائع. صحيح أن حَراك الواقع يحصل بمعزل عن إرادة الفرد، إلاّ أنه ثمة علاقة جدلية وترابطية بين الوعي من جهة، والحراك الاجتماعي - الاقتصادي (الإنتاجي) الذي يعيشه المجتمع، من جهة أخرى. ووفق تفسير ماركس لهذه الظاهرة ولدور الفرد في صنع الحدث والتاريخ والتأثير فيهما، فإن البشر هم الذين يصنعون التاريخ، ولكن هذا لا يتم في ظروفٍ يختارونها بأنفسهم: (1) فالتاريخ يتحرك إلى الأمام من خلال الصراع الطبقي، (2) أمّا البشر فيشرعون بتنظيم أنفسهم وممارسة أفعال واعية من أجل تغيير المجتمع عندما يعانون من الظلم والاضطهاد، فيتصدون لهذا التناقض ويسعون من أجل التغيير الاجتماعي والسياسي. على النقيض من هذا، يسود في كتابة التاريخ وتدريسه، نهج يروّج لفكرة أن الفرد ودوره وعظمته (الملوك، الزعماء، القادة ...) هو الذي يصنع التاريخ ويحرك المجتمع بمعزلٍ عن العلاقات الاجتماعية ودور الطبقات والقوى الاجتماعية الأخرى.

وهنا لا بدّ من التشديد على أن هذا النهج في فهم الواقع ودور الوعي البشري يكتسب أهمية خاصة في تفسير الأحداث التاريخية، كما حدث، على سبيل المثال، في الانتقال من حقبة الإقطاع إلى الرأسمالية في البلدان الأوروبية، ودور التحولات والحراك الاقتصادي - الاجتماعي التي تفاعلت في المجتمع آنذاك مما ساهم في تطوير أشكال جديدة (النمط الرأسمالي) من الإنتاج وفي تقويض أشكال الإنتاج القديمة (النمط الإقطاعي).

ب) حواس الإنسان: منافذ الوعي

تمثل الحواس الخمسة منافذ الوعي عند الإنسان التي تتيح له الاتصال بالواقع المحيط به: فيبصره ويسمعه ويشمّ رائحته، فتقوم العلاقة بين الكيان الشخصي والعقلي للإنسان وبيئته، ويكوّن بناءً على ذلك منظومات الأفكار والمعلومات والحقائق والأرقام حول الواقع الماديّ والمعنويّ، وكذلك الآراء ووجهات النظر والمصطلحات والمفاهيم. وكلما نضج الإنسان فكرياً، يكتمل لديه الوعي والنضج الفكري، إذ يراكم من خلال منافذ الوعي المزيد من الخبرات والمعرفة، فيتسنى له أن يبدأ في فهم وتحليل الأحداث والتطورات من حوله ويحدد منها موقفه في قبولها أو رفضها.

وعليه، فمن الناحية العلميّة، فإن الوعي يعكس الحالة العقليّة التي تميّز الإنسان في الجوانب العقلانية والمنطقيّة والشعوريّة، إضافةً إلى الذاتيّة والإدراكيّة الحسيّة التي تبيّن العلاقة بين الإنسان ومحيطه الطبيعيّ والخارجيّ.

يجدر بنا هنا أن نتوقف عند مسألة هامة سنعود إلى مناقشتها، وهي أنه ليس كل ما يكوّنه الإنسان من مفاهيم ووجهات نظر أو أفكار متعلّقة بالحياة والمجتمع والطبيعة المحيطة به، يشكّل وعياً حقيقياً، بل نجد في كثير من الحالات وعياً زائفاً يُنافي الواقع الموجود ولا يتطابق معه في نواحٍ عديدةٍ.

العوامل المؤثرة في صياغة تفكير الإنسان ووعيه

1) تراكم ما يتلقاه المرء من مفاهيم وقيم وقناعات خصوصاً في مراحل نموه المبكرة والتي تصيغ تفكيره عبر مراحل حياته اللاحقة. ويتلقى المرء هذه الأفكار من خلال أسرته والمجتمع ووسائل التعليم والثقافة والمطالعة ومجمل الآليات والمؤسسات التربوية والدينية التي يتعرض لها منذ نعومة أظفاره. وتتجمع هذا المصادر والمؤسّسات بكل ما فيها من مؤثرات فكرية وثقافية لتشكّل وعي الإنسان وتكوين أفكاره عن البيئة المحيطة به واكتسابه الخبرات في مختلف مجالات الحياة والمجتمع. وهنا لا بدّ من التذكير بما ذكرناه أعلاه لما له من تبعات على دور الإنسان في المجتمع في مستقبل عمره، وهو أن الوعي الذي يتم تشكّله وتطوره في المراحل المبكرة من حياة الإنسان، قد يكون زائفاً وقد يكون حقيقياً. ويكتسب التمييز بين هذين أهمية كبيرة سنعود إليها.

2) المنهج الفكري الذي ينشأ عليه الفرد، وهنا يكون الخط الفاصل بين:
- المنهج العلمي الذي يستند على المعرفة والعلوم والانفتاح على ما تزخر به مجالات المعرفة الإنسانية المختلفة؛
- والمنهج الديني الذي يقدم فهمه وتفسيراته للكون والحياة والمجتمع مستنداً لتصورات غيبية تقوم على تعاليم العقيدة الدينية. وكثيراً ما يعني هذا تحريم التفكير النقدي وحرية الفكر وخروج العقل عن النص الديني المقدس، فيوقف الفكر الواعي عند التعاليم الدينية وما تضخه المؤسسة الدينية ووسائل دعوتها وإعلامها، والإنصياع لما تعظنا به من أفكارٍ وقيم ومفاهيم.

ولعلها مفارقة يجدر بنا التوقف عندها، وهي أنه على الرغم من أن النصوص الدينية تحفز على طلب العلم والمعرفة، إلاّ أننا نلحظ أن المؤسسة الدينية عبر تاريخها، قد انتهجت ومارست قمع العقل والنقد وحرّمت السعي إلى التقدم العلمي والفكري والفلسفي. ويبدو أن هذه الملاحظة اللافتة تشكّل قانوناً عاماً يمكننا سحبه على المؤسسات الدينية من كافة الأديان، وخاصة الأديان التوحيدية الثلاث التي رأت النور في بلادنا واعتنقتها

شعوبنا لقرون طويلة. هذا المنهج الديني يَحُول، في جوهره، دون الاجتهاد او التعديل أو التطوير للنص الديني والذي يُعتبر مقدساً ومطلقاً على الرغم من أنه جاء في سياقٍ زماني ومكاني وتاريخي مغاير وكان نتاجاً له.

3) الوعي هو أيضاً نتاج للمحصول الفكري الذي يتراكم لدى العقل البشري من خلال التجارب التي يعيشها المرء والقضايا الحياتيّة والاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي يواجهها، والخبرات التي يكتسبها من التجارب الشخصية. وهذه الخبرات قابلة للتغيير والتطوير حين تتغير ظروف الواقع والحياة.

بكلمات أخرى، فإن الوعي يعبّر عن حالة العقل في إدراك الواقع وتفاعله وتواصله المباشر والمستمر مع البيئة المحيطة به. وحالة العقل هذه تجمع بين الإدراك من جهة، وتفعيل دور العقل والمشاعر لدى الإنسان في فهم ما يدور حوله وتنظيم علاقته به، من جهة أخرى.

4) أما وسائل هذا الإدراك فتتمثل في دماغ الإنسان وحواسه الخمس، والتي هي نوافذ احتكاكه بالواقع وقدرته على التفكير، وهكذا يصبح الإنسان قادراً على التماس والتفاعل المباشر مع ما يدور من حوله من أحداث، ومع الكم الهائل من الأفكار والمعلومات والحقائق والآراء والمفاهيم المتصلة بما هو ماديّ أو معنويّ. ولعل هذا هو ما قصده ماركس في مقولته حين قال إن الوعي عبارة عن بناءٍ فوقي تندرج تحته كافّة الأنشطة الإنسانية وأن الإنسان لا يستطيع العيش بمعزل عن هذا كله.

5) على الرغم من أهمية هذه المؤثرات التي أتينا على ذكرها، فإن الوعي لا يكتمل إلا إذا عمل الإنسان على تنميته بشكل مستمر من خلال تطوير قدراته الفكرية، ومن خلال ربط تلك القدرات بتجاربه الحسية الناجمة عن خبرته في الحياة.

الوعي الفكري ومفهوم التغيير

يستند التفكير - من منظور التغيير الاجتماعي والسياسي - إلى أسس وقواعد يمكننا أن نلخصها بمكونين أساسيَيْن:
1) الأول، التواصل مع الواقع والإحساس به إحساساً فكرياً ناتجاً عن فهم (وفهم الأسباب الكامنة وراءه) وإدراكه؛

2) والمكون الثاني هو معالجة هذا الواقع، حيث يصبح الإنسان قادراً على اتّخاذ القرارات التي تخص مجالات حياته وبيئته، والأهم - وهذا هو بيت القصيد – العمل على خلق الواقع البديل، سواء بالتغيير أو التحسين والاصلاح.

ويخضع كلا المكونين لما تَشكّل لدى الإنسان من مفاهيم وقناعات ومقاييس ليكوّنا معاً أساس المعرفة الإنسانية وأساس العملية التغييرية في المجتمع والفكر والسياسة وغيرها.

غير أن عملية التفكير لدى الإنسان هي أيضاً انعكاس لمنهجه وحالته الفكرية. وهذه الحالة الفكرية ليست مجردة أفكار تجريدية، بل هي الأفكار السائدة في ظل هيمنة طبقة/طبقات وأيديولوجيات تسيطر على المجتمع والسياسة والفكر وتعبر عن مصالحها. فهناك في التاريخ البشري ما لا يحصى من الأفكار التي تفتق عنها عقل الإنسان، ولكننا نكاد لا نرى أثراً للكثير منها في حياتنا ومجتمعاتنا المعاصرة. ويعود السبب في إندثارها أنها لم تلقَ الحامل الاجتماعي ليحملها ويطورها في الواقع المادي. بعبارة أخرى، لم تجد هذه الأفكار الحامل الطبقي أي قوى طبقية تحملها لتصمد أمام الصراعات الاجتماعية والسياسية وأعاصير التاريخ وتقلباته، وهو ما يؤكد ما أتينا عليه أعلاه بأن الأفكار ليست مجردة بل هي تجسيد لمنطق ومصالح الطبقات المهيمنة في المجتمع.

تشكيل الوعي والتشكيلة الاجتماعية – الاقتصادية

احتل الوعي أهمية خاصة في فكر كارل ماركس الذي تميّز عن غيرة من المفكرين والفلاسفة بأنه عالج مسالة الوعي من منظور تفسيرة للواقع المادي الذي يعيش الإنسان، ورأى أنه (الوعي) ناتج عن الظروف المادية والاقتصادية التي تشكّل البنية التحتية، وأن الأفكار هي نتاج القوى الأيديولوجية (البنية الفوقية) التي تسعى لتفسير توزيع الثروة والقوة (مواقع السلطة) في المجتمع أو تبريرها وإيجاد الذرائع لها. ومن بعد ماركس تابع المفكرون الماركسيون مساهماتهم العديدة والهامة في هذه المسألة.

سأستعين بما كتبه كارل ماركس عام 1859، ولعله من أوضح ما كتبه في هذا الصدد:
"النتيجة العامة التي توصلت إليها والتي أصبحت فيما بعد بمثابة خيط هاد في أبحاثي اللاحقة، إنما يمكن صياغتها بايجاز على النحو التالي:

إن الناس أثناء الإنتاج الاجتماعي لحياتهم، يقيمون في ما بينهم علاقات معينة ضرورية مستقلة عن إرادتهم. وتطابق علاقات الإنتاج هذه درجة معينة من تطور قواهم المنتجة المادية. ومجموع علاقات الإنتاج هذه يؤلف البناء الاقتصادي للمجتمع، أي الأساس الواقعي الذي يقوم عليه بناء فوقي حقوقي وسياسي وتطابقه أشكال معينة من الوعي الاجتماعي. إن نمط إنتاج الحياة المادية يشترط تفاعل الحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية بصورة عامة. فليس إدراك الناس هو الذي يعين معيشتهم، بل على العكس من ذلك، معيشتهم الاجتماعية هي التي تعيّن إدراكهم. وعندما تبلغ قوى المجتمع المنتجة المادية درجة معينة من تطورها، تدخل في تناقض مع علاقات الإنتاج الموجودة أو مع علاقة الملكية - وليست هذه سوء التعبير الحقوقي لتلك - التي كانت الى ذلك الحين تتطور ضمنها. فبعدما كانت هذه العلاقات أشكال لتطور القوى المنتجة، تصبح قيودا لهذه القوى. وعندئذ ينفتح عهد الثورة الاجتماعية. ومع تغير الأساس الاقتصادي يحدث انقلاب في كل البناء الفوقي الهائل بهذا الحد أو ذاك من السرعة."

تكثف هذه الفقرة علاقة الوعي والإنتاج عند ماركس حيث تكمن نقطة الانطلاق عنده في أن الإنسان كائن اجتماعي في جوهره، ولا يستطيع العيش بدون المجتمع والعلاقات التي يقيمها الناس فيما بينهم، أي أن الإنسان لا يستطيع أن ينتج الشروط الضرورية واللازمة لبقائه إلا في إطار المجتمع. لذلك رأى ماركس أنه يستحيل الفصل بين وعي الناس ووجودهم الاجتماعي.

بناءً على ذلك، يعطي ماركس للحياة الاجتماعية أهمية أساسية في تحديد الوعي. فدراسة المجتمع الإنساني عنده تكون من خلال الواقع المادي الذي نعيش فيه، والذي يحدد واقعنا الحي والأفكار التي نعتنقها. ولكن هذا لا ينفي، بل هو يؤكد، بأن ثمة تفاعلاً معقداً بين الواقع المادي والأيديولوجيات التي تفسّر هذا الواقع والتي كثيراً ما تزيفه وتعتم عليه.

نجد، مثلاً، أن الأيديولوجيا في المجتمع البرجوازي/الرأسمالي، تدفع الناس إلى القناعة والقبول بالأمر الواقع، وهو واقع الظلم والاستغلال. فالعامل مثلاً كثيراً ما يقبل بحكم رأس المال وسلطته واستغلاله على أنه الأمر الطبيعي والأبدي وأنه غير قابل للتبديل أو التغيير.

هذا مثال ساطع على الوعي الزائف والخاطئ حيث تَحُول الأدوات الأيديولوجية دون إدراك الناس لحقيقتهم وحقيقة واقعهم، وهي أنهم هم الذين يعملون وينتجون الثروة، وهم الذين يستحقونها وليس أصحاب رأس المال الذين يملكون وسائل الإنتاج ولكنهم لا يعملون ولا يساهمون في الإنتاج. بهذا المعنى، نفهم ما قصده ماركس حين نحت مقولته في أن الوعي هو انعكاس للاقتصاد السياسي. ومن هنا أيضاً أتت عبارته الشهيرة في الفقرة التي اقتبسناها أعلاه:" ... فليس إدراك الناس هو الذي يعيّن معيشتهم، بل على العكس من ذلك، معيشتُهم الاجتماعية هي التي تعيّن إدراكهم".

صحيح أن الطبقات الشعبية تتمتع بوعي عفوي ضد الظلم والاستغلال، ولكن تبقى لديهم بعض القناعات المترسبة التي تقبل بالأوضاع القائمة (الوعي الزائف) التي تجسد وتكرس ظلمهم واستغلالهم. لذا لا بد من التخلص من هذه الأفكار والقناعات لدى هذه الطبقات ومن ثَم الإرتقاء بوعيها إلى مقاومة هذه الأوضاع والثورة عليها. وهذا يتطلب دور المثقف الثوري والتنظيم (الحزب) الثوري كي تهتدي هذه الطبقات برؤيتهم وتبلور وعيها وتنظم جهودها في الثورة والمقاومة.

خلاصة القول، إن النهج الماركسي يقف تماماً على النقيض من النهج السائد في ظل الأنظمة البرجوازية الرأسمالية وفي بلادنا والعديد من بلدان العالم. كما يقف بالتضاد من النهج الذي يتبعه كثير من المفكرين والمثقفين، ومن ورائهم العديد من المؤسسات التعليمية والثقافية.

الوعي الطبقي

يشير الوعي الطبقي إلى موقف الفرد وقناعاته الطبقية والسياسية تجاه الطبقة/الطبقات ومصالحها:
أ) تجاه الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها الفرد وفقاً لموقعه الطبقي ووضعه الاقتصادي؛
ب) وكذلك موقفه من الطبقات الاجتماعية الأخرى. فالطبقة تقوم على أساس علاقاتها بوسائل الإنتاج، أي مَنْ يملك تلك الوسائل من جهة، ومَنْ يعمل في العملية الإنتاجية ولكنه لا يملك وسائلها ولا ما تدره من ارباح، من جهة أخرى. أمّا الموقف من الطبقات الاجتماعية المختلفة، فيتكون على أساس نمط الإنتاج السائد في المجتمع ووسائل الإنتاج وملكيتها، وما ينبني عليها من علاقات الإنتاج وما يرتبط بالصراع الطبقي. وبهذا المعنى، فإن الوعي الطبقي لا يقتصر على وعي الفرد بل يشمل وعي الجماعات

والطبقات، فلكل طبقة اجتماعية وعي طبقي يتشكل من خلال هذه العلاقات المترابطة جدلياً والمتصارعة ايضاً.

ليس ما يعنينا في مفهوم الصراع الطبقي هو موقف الفرد من وضعه في المجتمع، بل الصراع في مستوياته الأشمل: الصراع بين الطبقات الشعبية من جهة، وأعدائها ومستغليها من أرباب العمل وأصحاب رأس المال، من جهة أخرى. بعبارة أخرى، ما يهمنا هو الصراع على مستوى الطبقة والذي يأخذ أشكالاً اقتصادية وسياسية وثقافية حيث تنتظم القوى المتصارعة في أحزاب وتنظيمات سياسية في صراعها من أجل الاستيلاء على السلطة والحفاظ على المصالح والمفاصل الاقتصادية والسياسية في المجتمع. ولا نزج هنا الحديث عن الصراع الطبقي كشأن نظري أو فذلكة سياسية، بل لأن مفهوم هذا الصراع يرتكز على التناقض والصر اعات في الحياة والمجتمع والطبيعة، وبهذا ينفذ (أي مفهوم الصراع) إلى المضمون الحقيقي في العلاقات الاجتماعية - الاقتصادية التي منها ننطلق في أشكال النشاط والفعل البشري والفكر الإنساني.

هذا في الفكر الماركسي، أما إذا نظرنا في غيره من النظريات والمفاهيم، فإننا نجد العديد من علماء الاجتماع والمفكرين السياسيين الذين يصنفون الأفراد والطبقات الاجتماعية على أسس مختلفة مثل الدخل أو المهنة أو الحالة الاجتماعية وغيرها. وهي تصنيفات تهرب من حقيقة الصراع الدائر في المجتمع، ودور الطبقات في مشروع التغيير الثوري. وعلى الرغم مما تتسم به هذه المقولات من معطيات تبدو علمية أو موضوعية، وما تلبسه من لبوس أكاديمية قد تفيد في الأبحاث الإحصائية، لكنها تخلو من القدرة على الأداء والفعل في التغيير الاجتماعي أو السياسي.

دور الوعي الطبقي في مشروع التثقيف الشعبي

على الرغم من طبيعة الطور الاقتصادي الذي تعيشه بلادنا، وتشابك النضال الوطني في التحرر وتحرير الأراضي العربية المحتلة مع النضال الطبقي، فإن مناقشة الوعي الطبقي تتميز بأهمية كبيرة تنبع من راهنية وإلحاحية مسألتين أساسيتين:

ا) الأولى، تتمثل في معنى وجوهر الاستغلال والذي يمكننا أن نكثفه فيما يلي: إن الإنتاج في بلادنا، وفي ظل أي نظام رأسمالي، لا يستمر، والمجتمع لا يتطور أو يستمر في تطوره، وفقاً لخطة واعية، بل من خلال الدفع إلى تحقيق فائض القيمة الناتج عن اختزال "قوة العمل" إلى سلعة وتحويلها إلى "مجرد" عمل. هذا هو جوهر الاستغلال الرأسمالي. فعلى سبيل المثال، لا يكمن جوهر الاستغلال في أن العامل لا يستطيع أن يملك السيارة التي يصنعها أو ينتج بعض قطعها، بل يكمن في أن ما ينتجه العامل يحقق "فائض القيمة" لرأس المال والذي يزيد بدوره من تراكم رأس المال وسطوته كي يعود ويستمر في استغلال هذا العامل.

ب) والمسألة الثانية والهامة، أن الحديث عن الاستغلال والصراع الطبقي يبقى نظرياً ومجرداً إذا لم يتحول إلى وعي حقيقي جذري وثوري واسع بين جماهير الطبقات الشعبية، أي أن يتحول إلى وعي طبقي وسياسي قابل للترجمة في برامج نضالية عملية. تأخذنا هذه المسألة إلى إشكالية العلاقة أو الصلة بين النظرية من ناحية، والمشروع التثقيفي والتنويري الشعبي (أي مهمة التربية الشعبية)، من ناحية أخرى. بكلمات أخرى، علينا أن نجيب على المعضلة/السؤال التالي: كيف يمكننا تحويل الوعي الطبقي الكامن إلى وعي حقيقي، سياسي وثوري؟ خصوصاً إذا كنا نعيش في مجتمعات قد تحتاج كل "شريحة" أو "فئة" أو "مستوى" من الطبقات الشعبية إلى تربية خاصة بها، وفق تحليل وفهم وضعها المادي، الاجتماعي- الاقتصادي.

إن الوسيلة الوحيدة الناجعة في تنمية الوعي الطبقي الثوري هي العمل والنضال والممارسة، وتأسيس المشروع التنويري كجزءٍ من النضال الطبقي - الاجتماعي للطبقات الشعبية. فالتلقين لا يجدي ويبقى مجرد دعاية دون فعالية ودون أفق، بل إن جماهيرنا قد سأمته. فالجماهير لا تتعلم إلاّ عبر الممارسة والتي وحدها هي الكفيلة بخلق وتطوير الوعي الجماهيري من خلال تراكم التجارب الميدانية والخبرات النضالية. فالوعي الطبقي لا ينتقل إلى الجماهير عبر دروس نظرية تُلقى من على المنبر، بل إن تنمية هذا الوعي وتطويره تبدأ من حياة الجماهير وممارستها وتسييس حاجاتها ومطالبها. وهذا يتطلب بناء التنظيم الثوري (الحزب) الذي يقدم رؤية ثورية وبرنامج نضالي عملي تقودة قيادة ثورية كفؤة وملتزمة وقادرة على المضي بالنضال الشعبي حتى تحقيق أهدافه.

لقد أكدت تجارب الشعوب في الثورة والتغيير الاجتماعي عبر التاريخ، أن النظرية لا تبرهن على صحتها ومبرر وجودها، إلاّ في علاقتها بالنضال الطبقي الحقيقي وقدرتها على تحويل الوعي الطبقي الكامن لدى الطبقات الشعبية إلى وعي ثوري حقيقي، ففي هذا النشاط الثوري يتم التطابق بين الذاتي والموضوعي.

قد يقول رأي إن هذا افراط في دور وتأثيرات الصراع الطبقي، بل ربما شطط في إضفاء هذا القدر المبالغ فيه من الأهمية عليه. إلاّ أن حقائق التاريخ والمجتمع تشير إلى أنه توصيف دقيق لواقع الحال، كما أنها دالّة على أن ضحايا الفقر والجوع والمعاناة الإنسانية بكافة أشكالها، هم من الطبقات الشعبية. وكلما ازداد هؤلاء فقراً وجوعاً، يزداد في النقيض منهم، ثراء الأثرياء والمستغِلين، لأن الأخيرين لا يعملون ولا ينتجون، بل إن ثراءهم هو ثمرة عمل وعَرَق الأولين.

الوعي السياسي

يشير الوعي السياسي، بالعادة، إلى الإدراك الفردي والجمعي (الأفراد والمنظمات والأحزاب وغيرها من القوى السياسية والاجتماعية)، للأوضاع القائمة والمناخ السياسي – الاقتصادي - الاجتماعي في المجتمع، وطبيعة القوى والتيارات والحركات السياسية والاجتماعية والثقافية الفاعلة فيها وبرامجها وأهدافها، سواء على المستوى المحلي والوطني أو الإقليمي والدولي، حيث تقوم بين كافة هذه المستويات علاقة ترابطية وجدلية.

ومن شروط هذا الوعي تكوين فهم للراهن السياسي وأهداف الحراك والفعاليات السياسية ومطالبها، والأهم بالطبع هو تكوين فهم ونهج للتغيير المنشود والنضال الشعبي وطبيعة حراكه وآلياته (ثورة، انتفاضة، نضالات حزبية ومطلبية وبرلمانية ...) من أجل تحقيق مصالح الشعب وضمان الحريات وتأمين احتياجاته الأساسية في العيش الكريم وتحقيق العدالة الاجتماعية. وهنا نتحدث عن الطبقات الشعبية التي تشكّل الأغلبية السكانية (الشعبية) في المجتمع، لا عن قلة من الشرائح والفئات الاجتماعية الغنية التي لا تشكل سوى نسبة صغيرة منه. وبهذا يجوز لنا أن نقول إن الوعي السياسي هو القلب النابض للقوى الحية والفاعلة في المجتمعات والكيانات السياسية.

الوعي الديني

تحتل مسألة الوعي الديني والدين والتدين وممارسة الشعائر الدينية حيزاً كبيراً في الثقافة العربية والوعي الشعبي العربي. وعلى الرغم من الجهود الكبيرة التي قام بها مفكرون كثيرون عبر تاريخنا، حديثه وقديمه، في معالجة هذه القضايا وإشكالياتها، ما زالت هذه المسألة بحاجة إلى المزيد من الدراسة والجدل وخاصة فيما يتعلق بتأثيرات الدين ومؤسساته في الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية العربية.

ولتبسيط هذه المسألة الشائكة، نقدم فيما يلي بعض الملاحظات في محاولة لتعريف وفهم الوعي الديني بعيداً عن المفاهيم الثيولوجية المجردة، مستخدمين مفاهيم شائعة بين الناس ومتوافق عليها في أغلب الأحيان.

- من المعروف أن الديانات كانت دوماً موجودة بشكل أو بآخر في المجتمعات البشرية منذ نشأتها، وأن فكرة الله والوعي به رافقت الإنسان والحضارات الإنسانية في مسيرتها لآلاف السنين وارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالعديد من أفكاره (الإنسان) ومفاهيمه ومشاعره مثل المحبة، السعادة، الخير، الحكمة، معنى الحياة، الآخرة ... وغيرها.

- يطرح الدين فكرة الإيمان بالله أو الخالق والاعتقاد بأنه موجود، على أنها فكرة بسيطة غير قابلة للجدل وكحقيقة أزلية تقدم الإجابات على كافة أسئلة الوجود والواقع. وعلى ركيزة هذه العلاقة مع الخالق، تلبي الديانة حاجة إنسانية أساسية وهي الشعور بالطمأنينة والأمن الداخلي والنفسي، وهكذا يضحى الإيمان (المعتقد الديني) ضمانة لطمأنينة الإنسان وسعادته ويصبح ركيزة أساسية لوعيه الديني.

- على خلاف الفلسفة والعلم، لا يسعى الدين أي الإيمان بالله أو الخالق و الوعي به إلى تفسير ظواهر الحياة والكون والطبيعة وقوانينها، بل يعزوها إلى القدرة الإلهية أو الإرادة الربانية، ويرتكز على الإيمان أو الحدس أو الشعور، لأنه في جوهره يسعى إلى العلاقة مع الله والتقرب منه. كل هذا يجعل الوعي الديني مختلفاً ومتميزاً عن غيره من أشكال الوعي التي، من حيث كونها حالة عقليّة وإدراكية، تعمل على فهم الواقع من خلال وسائل اتّصال الإنسان ببيئته.

- في تفكيك قضايا الدين وحين نحاول دراسة تأثيراته على الفرد والمجتمع، يحسن بنا أن نميّز بين مستويات ثلاثة:
1) المعتقدات الدينية، وهي مجموعة الأفكار والمعتقدات التي تتسم بها ديانة معينة، مثل

الركائز الخمسة في الإسلام (الشهادة، الصلاة، الزكاة، الصوم والحج) أو عقيدة أن "المسيح ابن الله" أو "الثالوث المقدس" في المسيحية، وما شابه ذلك في الديانات الأخرى؛

2) الطقوس والشعائر الدينية، والتي قد تختلف من ديانة إلى أخرى، ولكنها تجمع فيما بينها العديد من العناصر المشتركة مثل طقوس الصلاة والتعبد والموت والدفن والزواج وغيرها؛

3) الخبرات الدينية، أي ما يعيشه الفرد من تجارب ومشاعر وقناعات في علاقته مع الله أو الخالق.

يتجلى الوعي الديني في هذه المستويات الثلاثة في تجليات تتباين من ديانة إلى أخرى، ومن مجتمع إلى آخر، وكذلك من حقبة تاريخية إلى أخرى، ولكنها تجتمع على مشترك هو ببساطة: أن الله موجود، بل هو واقع وليس مجرد عقيدة مجردة، وكثيرون يعتقدون أنهم قد سمعوا صوته وشاهدوا صورته ولمسوا مظاهر قوته وقدرته الفائقة على اجتراح العجائب وشفاء الإنسان من الأمراض ... وما شابه.

الدور الاجتماعي – السياسي للدين

توقفت عند هذه الملاحظات، ليس لأنها موضوع بحثنا، بل لأنني أعتقد أنها تأسس لفهم موضوعي لمكانة الدين ودوره في حياتنا، ولذلك فهي تشكّل أرضية ضرورية قبل الولوج إلى المسألة التي تعنينا وهي العلاقة بين الدين ومؤسسته، من جهة، والبنية الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع، من جهة أخرى، بعيداً عن الجوانب الإيمانية والروحانية للدين. وعليه، فإننا لا نبحث في صحة المعتقدات الدينية، بل نناقش تأثيرات الدين الاجتماعية والسياسية ودور هذه التأثيرات في تكوين الوعي (الفردي والجَمعي) وتطوره.

لهذه الأسباب مجتمعة، وعلى خلاف الرأي الذي يقول بأن الدين شأن خاص بالفرد، فإن علماء الاجتماع يجمعون على أن الدين أيضاً مؤسسة اجتماعية، وأنه يمثل مجموعة من المعتقدات والقيم والممارسات المنظمة والمتماسكة (أي الممأسسة) والتي تلبي احتياجات وقيم اجتماعية أساسية. بعبارة أخرى نقول إنه كما أن الأوضاع الاجتماعية والسياسية تؤثر في أفكار الناس وخياراتهم، كذلك فإن الدين يوثر بالفرد والمجتمع ويتاثر بهما أيضاً.

الدين السياسي وتأثيراته على الوعي

لتوضيح فكرة التوظيف السياسي الدين، والتمييز بين الدين كعقيدة إيمانية للفرد وتوظيفه في خدمة أهداف سياسية واجتماعية، ومنعاً للالتباس في هذا الموضع ذي الحساسية المفرطة في مجتمعاتنا المتدينة والتقليدية، نبدأ بضرورة الانتباه والتمييز في مستويَيْن:

الأول، التمييز بين الدين في أبعاده الإيمانية والروحانية كعلاقة بين الفرد والخالق، من جهة، ومن الجهة الأخرى دور الدين والمؤسسة الدينية في المجتمع والسلطة السياسية وتوظيفه في خدمة غايات ومصالح سياسية واجتماعية وإيديولوجية. لأن الوعي الديني، كما ناقشنا في أكثر من مكان، ليس مجرد انعكاس للمشاعر أو المعتقدات الدينية، بل نراه يتبلور ويتمأسس ويأخذ بنية منظمة ومتطورة وشديدة التماسك.

والثاني، التمييز بين "الدور التقليدي" للدين والمؤسسة الدينية من جهة، ومن الجهة الثانية التطورات التي ظهرت في بلادنا منذ بداية سبعينيات القرن الماضي في تشكّل وتبلور قوى الدين السياسي ودورها كقوى ثورة مضادة مرتبطة بالمركز الرأسمالي - الإمبريالي وسياساته وأجنداته، ومعادية للقومية والوحدة العربيتين وقضايا شعوبنا في تحرير الأراضي العربية المحتلة وإنجاز التنمية وإنهاء التبعية للمركز الرأسمالي. وتتجلى قوى الدين السياسي هذه في أنظمة حاكمة، وأحزاب وتنظيمات سياسية ودعوية وإرهابية مسلحة، وفي عديد من التيارات السلفية والأصولية والإرهابية، ومؤسسات إعلامية وثقافية وغيرها.

في قلب هذه المسألة، نشهد كيف يتم استخدام النصوص الدينية وتوظيفها لخدمة أغراض سياسية واجتماعية، وكيف تمّ تكاثر هذه النصوص وما نُسب إليها عبر حقبات التاريخ الإسلامي مثل أحاديث الصحابة والأتباع والتي أصبحت في اعتبار الكثيرين جزءً من النصوص الدينية المقدسة. كما نلحظ، بما لا يقل أهمية، دور تأويل وتفسير هذه النصوص وتوظيفها في ظروفنا الاجتماعية والسياسية الراهنة، مع أنها (النصوص) جـاءت في سياق بنية اجتماعية تاريخية معينة، وكانت نتاجاً لأوضاع اجتماعية وسياسية في تلك الحقبة وخضعت لتأثيرات تلك البيئة.

هكذا دخل الدين عبر الحقبات التاريخية المختلفة إلى الصراعات السياسية، وتم توظيفه وتوظيف نصوصه في خدمة غايات سياسية، كما حدث، على سبيل المثال، حين تَحَول الحديث إلى "نص ديني" ذي أبعاد خلافية في الصراعات الدينية والسياسية. وهو ما يفسر هذا الكم الهائل من الفتاوي التي تتفاوت وكثيراً ما تتناقض، فنرى كيف يختلف ويتصارع الفقهاء في فتاويهم وآراءهم في تفسير الموقف ذاته والحدث ذاته.

بناءً عليه، يمكننا الاستنتاج:

(1) يجمع كثيرون من المفكرين والفقهاء على أن المواقف من النصوص الدينية بعد القرآن، من حيث نشأتها وتكوينها، جاءت كقرارات وخيارات في مناخ الصراعات السياسية من أجل السلطة والمنافسة على احتكار الحقيقة الدينية؛

(2) أن المرجع الأساسي وصاحب القول الفصل في هذه الحالات كان الفريق المنتصر في الصراع على السلطة الذي إدّعى أنه يملك الحقيقة وبالتالي يمثل الصيغة (المرجعية) الرسمية للدين.

نختم هذه الفكرة بالقول بإنه لا يمكننا قراءة هذا المشهد وراهنيته في الواقع العربي وتأثيراته على أوضاع شعوبنا، إلاّ إذا إدركنا مكانة الوعي الديني على المستوى الشعبي والدور الذي يلعبه في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية. فإذا كان الوعي متديناً وهابطاً معرفياً وثقافياً ودينياً، فإنه يصبح من السهل تقديم تفسيرات وقراءات ميكانيكية للنص الديني والتراث، بل يمكن، وهذا هو الأخطر، تأويلها ووضعها في خدمة أغراض سياسية وإيديولوجية. وإذا ما أضفنا إلى ذلك تردي الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والنفسية، يصبح من السهل فهم ظاهرة العنف والإرهاب والاقتتال الطائفي والمذهبي التي تتولد عن التطرف والتعصب، وتوظيفها سياسياً واجتماعياً من قِبَل قوى الدين السياسي.

الوعي الديني كمصدر للتأثير في المجتمع والسياسة

لعل أهم ما يتميز به الوعي الديني، على الأقل من ناحية تأثيراته على الإنسان والمجتمع، هو كونه وعياً جَمْعياً يشارك فيه المؤمنون وأتباع الديانة الواحدة، ما يُسمى أحياناً ب "الإخوة الإيمانية". فعندما ينمو الوعي الديني بين هؤلاء المؤمنين في إطار ديانة واحدة ومؤسسة دينية واحدة، إلى مستويات عليا من الإيمان والتقوى والتعبد، فإنه يصبح مصدر وجودهم بل كثيراً ما يضحى مصدر كل شيء في حياتهم، وعند بعضهم يصبح غاية الحياة نفسها. وهنا يشكّل الوعي الديني ركيزة متينة للرابطة الوثيقة بين أتباع العقيدة والمؤسسة الواحدة، والذين يلتقون بقوة وعفوية على أرضية مشتركة ورباط الأخوة المتينة والهدف المشترك الجامع. وأحياناً يشاركهم في هذه الرابطة الوثيقة أتباع ديانات أخرى، وهو ما يشكّل نسبة كبيرة من المجتمع وربما أغلبيته، فتقوم بين هذه الجموع الغفيرة شبكة علاقات قوية قوامها الترابط المتبادل والهدف المشترك.

تفضي بنا هذه المسألة إلى فهم القدر الكبير من تأثيرات الوعي الديني على الإنسان والإنسانية إذ أن هذه التأثيرات لا تقتصر على ديانة واحدة مثل الإسلام أو المسيحية، بل تشمل مجمل الديانات على الرغم من تعددها. وسوف نعود لاحقاً تحت عنوان "الوعي الحقيقي والوعي الزائف" إلى مناقشة الوعي الديني، لا لمزيد من الاستفاضة في الشرح، بل لتبيان ما حلّ به من تزييف وتوظيف لخدمة أغراضٍ سياسية واجتماعية وأيديولوجية.

الوعي الحقيقي والوعي الزائف

لا بدّ من الإشارة في البداية إلى أننا لا نناقش هذين الشكلين من الوعي في فضاءٍ نظري مجرد، بل في سياق الواقع العربي وواقع الشعوب العربية، وتحديداً في سياق آثارهما (أي الوعي الحقيقي والزائف) على الوعي الشعبي العربي والحاجة الملحة لبناء مشروع تثقيفي تنويري شعبي يأخذ بالجماهير العربية إلى حيز الفعل السياسي والتغيير الجذري للأوضاع المزرية التي تعيش فيها.

وبالرغم من أن ظاهرة الوعي الزائف الذي يسيطر، في العديد من تجلياته، على العقل الجَمْعي لا تفوت المراقب لأوضاع شعوبنا في الراهن العربي، فإن الّذين تنبّهوا لها هم قلّةٌ، بينما ظلت الغالبية العظمى من الناس ضحية تشوية وعيهم وتزييفه. فقد قام بعض المثقفين والمفكرين بالتنبيه والتحذير من هذه الظاهرة وعملوا على كشف تجلياتها في الواقع العربي، وهناك محاولات وكتابات جدية وحصيفة في هذا الاتجاه، ولكننا بحاجة إلى المزيد لمعالجة هذه الإشكالية وإعادة الأمور إلى نصابها.

تكمن أهمية التمييز بين هذين الشكلين من الوعي في الناحية العملية لبناء مشروع تثقيفي شعبي وتنويري عربي. فمثل هذا المشروع، يتطلب بناء الوعي الحقيقي، النقدي والجذري والثوري، كركيزة رئيسية وشرط أساسي في استعادة دور الجماهير. غير أن هذه المهمة باتت مستحيلة دون التخلص من أوهام الوعي الزائف الذي أصبح مستشرياً في أبعاد حياتنا المادية والعقلية والروحية، وقد أرهقت حمولته، على مدى عقود، مسيرة الجماهير وحَرَفتها عن مسارها في النضال من أجل التغيير، وغدا الوعي الزائف يُحْكم سيطرته على الحياة المعنوية والمادية للإنسان.

الوعي الحقيقي والأمين هو الوعي بحقيقة القضايا المطروحة حول الإنسان وواقعه وبيئته، وهو ما يتطلب الوقوف على المعلومات والمعطيات الصادقة والحقيقية وإدراكها. أما ب"الوعي الزائف"، فإننا نقصد ذلك الذي لا يدرك الأمور على حقيقتها، حين لا تتوفر المعلومات والمعطيات الصادقة، أو حين يتم تشويهها أو تقديمها على نحو خاطئ أو كاذب، وهو ما يؤدي إلى تشويه الموقف من القضايا واتخاذ موقف خاطئ، أي أنه يؤدي إلى تكوين الوعي الزائف. وينبني هذا الوعي على مجموعة من الأوهام ويتمثّل بالأفكار والمفاهيم التي يتبنّاها الشخص ويقتنع بها رغم أنّها لا تتناسب ولا تتطابق مع الواقع الذي يعيشه، على النقيض من الوعي الحقيقي والواقعي الذي يتمثّل بالفهم الصحيح للواقع والأشياء والقضايا.

وعطفاً على ما ناقشناه أعلاه تحت عنوان "الوعي والإنتاج عند ماركس"، لا بدّ لنا من الإقرار بأن المفاهيم الماركسية، ومن منطلق فهمها للوعي، قد ساهمت في العثور على المسار الحقيقي والتاريخي لكفاح الشعوب في القضاء على كافة أشكال الظلم والاستغلال. فتكوين الوعي الحقيقي والقدرة على التمييز بينه وبين الآخر الزائف، يأخذ الناس إلى يقظتهم ووعيهم لدورهم وهويتهم ومصالحهم. لذلك، كان الوعي الحقيقي هو المرشد للكثير من الحركات التغييرية في حياة الشعوب والمجتمعات البشرية عبر التاريخ: حركات التحرر الوطني ضد الاستعمار والإمبريالية، والنضال ضد التمييز العنصري وفوقية العنصر الأبيض في أفريقيا والولايات المتحدة، ونضال البروليتاريا ضد استغلال رأس المال في كافة أنحاء العالم ... وما عدا ذلك من أشكال الظلم والاستبداد.

آليات تزييف الوعي

تزييف الوعي هو حصيلة لمسيرة طويلة من التطورات التاريخية والاجتماعية والسياسية والثقافية تتداخل فيها أسبابٌ وعواملٌ متعددة. وليس من المفيد ولا من الموضوعية والدقة أن نحصر هذه الأسباب والعوامل في واحدٍ دون الآخر. فليست العوامل الخارجية (الاستعمار والهيمنة الإمبريالية مثلاً) وحدها هي المسؤولة، ولا تلك العوامل الداخلية (التخلف، الأنظمة الرجعية والاستبدادية التابعة للمركز الرأسمالي - الإمبريالي، الثقافة ودور المثقف وغيرها). بل لا بد من اعتبار كل العوامل مجتمعة، الخارجية والداخلية، الذاتية والموضوعية، وكيف تفاعلت فيما بينها في تعطيل الوعي الشعبي وتزييفه.

ليس سراً أنه من أبرز العوامل التي تشكّل الوعي الزائف لدى عامة الناس هو الإعلام والمؤسسات التربوية والتعليمية والدينية والثقافية والفنية وجزءٌ لا يستهان به من النخبة الثقافية من مثقفين وأدباء وكتّاب. وبقدر ما يتسع له المجال هنا، سنركز على أربعة عوامل ساهمت في تزييف الوعي دون الإدعاء بأنها الوحيدة، ولكنها من وجهة نظرنا عوامل رئيسية، إضافة إلى أنها عوامل أساسية في خلق وعي جديد. وتتمثل هذه العوامل في الدور الذي يلعبه كل من:

أ) التربية الأسرية
ب) النظام التعليمي والتعليم التلقيني
ج) الثقافة والإعلام
د) الدين السياسي كآلية لتزييف الوعي

أ) دور التربية الأسرية

لا تقتصر المعرفة على ما نتعلمه ونتلقاه من خلال عملية التعليم في المدارس والجامعات، بل هي إرث تتداوله الأجيال، جيلاً عن جيل، وهذا ما يتم غالباً في إطار الأسرة والأسرة الموسعة expanded family وقبل التحاق الطفل بالمدرسة.

يجمع أطباء الأطفال المتخصصون في علم نمو الطفل child development على أن السنوات الأولى من حياة الطفل هي الأكثر تأثيراً وحسماً في تكوين الطفل ونموه. وهذه السنوات هي فترات الطفولة المبكرة الواقعة بين ولادة الطفل وبلوغه الثامنة من عمره. غير أن السنوات الخمس الأولى بشكل خاص هي الأكثر تأثيراً وأهمية فيما يتعلق بنمو الطفل وتنمية قدراته ومهاراته الجسدية والفكرية والعاطفية والاجتماعية. كما أن العديد من الأبحاث الطبية في تطور الدماغ البشري تشير إلى أن السنوات الثلاث الأولى هي أهم سنوات نمو الطفل.

لقد أشار سيغموند فرويد (1856 – 1939) منذ عقود في العديد من إبحاثه حول تكوين عقل الطفل وتطوير معرفته، مؤكداً أن الإنسان يكون "مُنْتَجاً صغيراً في سن الرابعة والخامسة" وما سيفعله في سنوات حياته اللاحقة لن يكون سوى "أن يكشف تدريجياً عما كان بداخله سلفاً". وهي ظاهرة كثيراً ما نشاهدها لدى الأطفال الذين يرافقون ويجالسون أخوتهم وأخواتهم الأكبر منهم سناً، فيتعلمون عن طريق المحاكاة القراءة أو الكتابة أو الرياضيات وغيرها من العلوم دون أن يفهموا معانيها في تلك المرحلة المبكرة من نموهم، ولكن سيكون لتراكم هذه المعرفة والخبرات أثراً في مستقبل حياتهم وتعليمهم.

لا بد هنا من الإشارة إلى أن هذا الاستنتاج يحمل، بالطبع، الكثير من التعميم، إذ أن نمو الطفل يتفاوت ايضاً بناءً على عمره وأسلوبه في التعلم وشخصيّته واستجابته وتفاعله مع عوامل البيئة العائلية والاجتماعية التي ينمو فيها ويتكسب فيها خبراته الأولى.

ب) النظام التعليمي والتعليم التلقيني

ليس أسلوب "التلقين وحشو المعلومات" في المناهج التدريسية في مدارس بلادنا وجامعاتها وحده الذي يخضع لهيمنة أيديولوجيا الطبقة الحاكمة والبنية الفوقية للنظام الحاكم، بل إن مجمل العملية التعليمية والتربوية تخضع لهذه الهيمنة وإملاءاتها في تكوين الأركان الأساسية لوعي الأجيال العربية الناشئة ومداركها المعرفية والثقافية. كما أن هذا النظام التعليمي وما يتضمنه من نهج تربوي ومواد تعليمية يعكس تلاقي مصالح السلطتين، السياسية والدينية وإحكام سيطرتهما على المجتمع. وهو ما يتمظهر منذ عقود في جمود الأنظمة التربوية والتعليمية في بلادنا، ما أدّى إلى غياب حرية الفكر والتعبير وضحالة فكرية ومعرفية وغياب النقاش حول قضايا الفكر والإنسان والمجتمع.

لعل التعليم التلقيني هو الأخطر والأكثر تأثيراً على الأجيال الناشئة ومستقبلها ومستقبل بلادنا بشكل عام. وليست بلادنا الوحيدة ولا الاستثناء، بل نجد حالات مماثلة ومشابها في كل الأنظمة الحاكمة في العالم.

يدخل الطفل المدرسة وفي مخزونه ما تعلمه في سنوات عمره السابقة في إطار بيئته الأسرية، وهنا نقف على جوهر مهمة التدريس حيث تصبح مهمة المُدرس أن يكشف عن المعرفة والمعلومات ويعرضها على العقول الصغيرة والشابة، ثم يدعوها ويعينها على فهمها وتفسيرها. أي أن المدرس يقدم المعرفة لتلاميذه، ثمّ يفسح لهم المجال لصقلها وإغنائها. بعبارة أخرى، ووفق الكثيرين من المتخصصين في نظريات ومسائل التربية والتعليم، فإن مهمة المُدرس تكمن في تسهيل وصول المعرفة إلى العقول وإزالة العوائق التي تحول دون فهمها وتقبلها، أكثر من جعل الأشياء والمعارف مفهومة وتلقين هذا الفهم أو التفسير للتلاميذ أو فرضه على عقولهم.

يقوم الأسلوب التلقيني، إن جاز التعبير، على اكتساب التلاميذ للمعرفة عن طريق فرض المعلومات والمحاكاة: محاكاة الآخر أو الأكبر أو الأكثر سلطة وقدرة مثل المُدرس وغيره. ولا يقتصر هذا الأسلوب في التعليم على التلاميذ الصغار في سنوات التعليم الإبتدائية، بل نشاهده في مراحل التعليم الثانوية والجامعية أيضاً.

بالمناسبة، ودون الرغبة في الخروج عن موضوعنا، بوسعنا أن نذهب إلى ما هو أبعد من تأثيرات هذا الأسلوب في مجال التربية والتعليم: إلى التربية الدينية في مجتمعاتنا وغيرها من المجتمعات البشرية عبر العصور دون إستثناء. أليس هذا ما يحصل فعلاً في تلقين النصوص الدينية وتقديسها، حيث يجري ترديدها وإعادة قراءتها مراراً وتكراراً آلاف المرات خلال حياة الإنسان ومنذ نعومة أظفاره، فيحفظها عن ظهر قلب، وفي كثير من الأحيان دون أن يكون قادراً على فهمها أو التفكير بمعانيها أو الاقتناع بها.

من هذا المنظور، يصبح التعليم التلقيني والسلطوي عائقاً إذ يتحول "الدرس" أو ما يقرره المنهج التدريسي إلى معرفةٍ ينبغي إعادة إنتاجها بشكل صارم وبعقل مغلق، دونما اعتبار للعملية التي تُمكّن من إعادة الإنتاج هذه، أي القدرة على التفكير وإثارة التساؤل والحق في النقد والتفكير النقدي. وهذا ما يثير سؤال وإشكالية مهنة التدريس ومسؤوليتها في تنمية القدرات التفكيرية للتلميذ، وليس مجرد عرض المعلومات أو المعرفة بشكل تلقيني مطلق.

هناك حاجة قصوى لمناقشة هذه المسائل في واقعنا العربي من منظور مراجعة وتقييم الأساليب والمناهج التدريسية والتربوية وطبيعتها ودور المُدرسين في تعليم الأجيال العربية الناشئة. وبوسعنا أن نضيف أيضاً حق هؤلاء المُدرسين في ممارسة دورهم في

صياغة المناهج والسياسات التعليمية والتربوية وتنمية مهاراتهم وقدراتهم التعليمية من خلال الالتحاق بدورات علمية وأكاديمية والمتابعة المستمرة لكل جديد في نظريات التعليم وعلم النفس التربوي وغيرها من العلوم والتخصصات ذات الصلة. فمن الملاحظ مثلاً، أن كثيرين من المُدرسين في بلادنا لا يبذلون جهداً في تثقيف أنفسهم والاطلاع الدائم ومتابعة التطورات في شؤون التعليم والتربية والتاريخ والسياسة والمجتمع، وهو ما يحتاجون إليه في تدريس طلابهم ورفع وعيهم. بل إن كثيرين منهم لا يتقنون اللغات الأجنبية كي يتمكنوا من الاطلاع على الأعمال والمؤلفات في لغاتها الأصلية، وكل هذا يساهم في تجهيل المدرسين الذين يناط بهم تدريس أبنائنا.

ج) الثقافة والإعلام

يحتل الإعلام في عالم اليوم، وفي واقعنا العربي بشكل خاص، موقعاً مركزياً إذ أنه يعمل على مدار الساعة على تشكيل وعي المواطنين، والأخطر تزييف هذا الوعي. ومن المظاهر اللافتة في الإعلام العربي، وبالطبع ليس فيه وحدة بل هي سمة العصر في الإعلام الغربي أيضاً، هو اللهاث وراء الأحداث المتسارعة دون التوقف للتفكير والتحليل أو الذهاب إلى الأعمق لفهم تأثيراتها الحقيقية على القطاعات الكبيرة من المجتمع والشعب.

قد يجد المرء بعض التفسير لهذه الظاهرة في تسارع وسخونة الأوضاع في بلادنا على مدى عقود من الأحداث والتطورات الجسيمة المتتالية بدون توقف، غير أن مؤثرات الإعلام العربي على وعي المواطن والشارع العربيين قد تعاظمت في العقود الثلاثة الأخيرة لعدة أسبابٍ وعوامل أهمها:

- ارتهان وسائل الإعلام لمَنْ يملكها وتوظيفها في مصلحة القوى المالية/الاقتصادية والسياسية التي تمولها وتسيّرها وفق نهجها ومصالحها؛
- المؤثرات التقنية في الإعلام، وبشكل خاص تقنية الصوت والصورة؛
- الضخ المستمر والتكرار مما يضاعف من التأثير الكمي على المتلقي على نحو يشبه الانفجار المعلوماتي بآلاف الرسائل يومياً؛
- هذا بالطبع بالإضافة إلى انتشار وسطوة الشبكة العنكبوتية وتشعباتها من عالم افتراضي ووسائل التواصل الاجتماعي؛
- تحوّل الكثيرين من المثقفين العرب على اختلاف أدوارهم وألوانهم - المفكر والفيلسوف، أو الكاتب والشاعر، أو الناقد والفنان والرسام – ليصبحوا مأجورين للإعلام والنفطي منه على وجه الخصوص، وأداة من أدواته، وبوقاً من أبواقه؛
- خلو الساحة السياسية والفكرية والإعلامية والثقافية بعد هزيمة الأحزاب والتنظيمات والتيارات القومية والشيوعية واليسارية، وانخراط كثر من كوادرها في المشاريع والمؤسسات الرجعية واليمينية والأجنبية الممولة من حكومات الغرب الاستعماري؛
- سلعنة الثقافة والفكر في عالم إستعراضي يصبح فيه الإنسان والفكرة سلعة.

د) استخدام الدين كآلية لتزييف الوعي

تبدأ عملية التربية الدينية في مجتمعاتنا وغيرها من المجتمعات، منذ نعومة أظفار الطفل في إطار الأسرة ولاحقاً في دور العبادة والمؤسسة الدينية، ومن خلال المؤسسات التربوية والتعليمية من مدارس وجامعات ووسائل الثقافة والإعلام. ولا تتوقف هذه العملية، بل تستمر في إطار الحياة الاجتماعية والأنشطة المجتمعية عبر الحضور الهائل للدين والتدين والمؤسسة الدينية وما تمتلكه من وسائل الإعلام والثقافة والدعاية.

كل هذا يساهم، في مرحلة مبكرة من نمو الإنسان وتكوّن وعيه، في زرع المفاهيم الدينية وترسيخ أهداف الدين وممارساته، وهو ما يلعب دوراً هاماً في تكوين وعي الفرد والمجتمع وكذلك في صياغة القيم السائدة والسلوكيات الفردية والمجتمعية. ويتعاظم دور التربية الدينية وأثرها في تكوين الوعي وحياة الفرد والمجتمع، إذا ما أضفنا أنها تتميز بأسلوب التلقين وحفظ النصوص الدينية عن ظهر قلب دون الأخذ بالحسبان أننا نعيش اليوم في سياق زماني ومكاني مختلف عن الحقبات التاريخية الماضية، ودون جهد في إمعان العقل والتفكير النقدي أو مناقشة الأفكار أو تبادل وجهات النظر بشكل حواري حيث يصبح العقل البشري متلقياً سلبياً لما يُقدم له من أفكار ومعلومات.

وتحت شعارات التعليم الديني والتوعية الدينية تنتشر في بلادنا مشاريع ومؤسسات تتخذ لنفسها لبوس التوعية الدينية والتبشير بالقيم الخيّرة، ولكنها كثيراً ما تعمل في خدمة أجندات وغايات سياسية وإيديولوجية تزيد من الاحتقان بين مختلف الأديان والطوائف والمذاهب وتحرض على التحارب بينها.

ففي حين تتغطى هذه المشارع والمؤسسات بغطاء الدين وتدّعي نشر ثقافة العيش المشترك والتسامح بين الإديان، نراها ترفض الآخر وتعاديه وتكفّره وتدعو إلى التطرف والإرهاب. وقد شهدنا في العقود الأخيرة انتشاراً واسعاً لهذه النشاطات والجهود تحت أشكال وآليات مختلفة تدّعي أنها دعوية توعوية وأنها تعمل على نشر التوعية الدينية.

في هذا السياق، لا ينبغي أن يفوتنا أن القوى الاستعمارية الغربية كانت السبّاقة في مشروع غزو بلادنا منذ القرن التاسع عشر وقبله تحت شعارات نشر الدين وقيّم المحبة والتسامح أو حماية الإقليات الدينية من الاضطهاد في ظل الاحتلال العثماني (يقصدون غير المسلمة أي المسيحية خصوصاً في بلاد الشام). ولهذه الغاية جاءت إلى بلادنا "إرساليات تبشيرية" وكثير من الكنائس والمؤسسات والتنظيمات التي موّلها الغرب الاستعماري واتخذت لبوساً دينية أو خيرية وأكاديمية. وما زالت هذه المؤسسات تعمل بين ظهرانينا حتى يومنا هذا تحت شتى المُسميات والعناوين والأقنعة من أجل تعزيز وتنفيذ أجندات خارجية استعمارية معادية لمصالح شعوبنا الوطنية أو الثقافية والحضارية.

لقد قام عدد من المفكرين والكتّاب بمحاولات للكشف عن تزييف الوعي الديني وتوظيفه لخدمة أهداف سياسية، ولكن هذه المحاولات لم تذهب إلى حلول جذرية لهذه المسألة ولم تتجاوز كونها طروحات فكرية وتصورات تدعو إلى تنمية "الوعي الصحيح" خصوصاً بين الجيل الشاب عبر آليات تجديد الخطاب الديني والتخلص من الفتاوي المضللة واستعادة دور الأسرة والمؤسسات التعليمية في نشر "الوعي الديني الصحيح".

تجليات الوعي الزائف في الواقع العربي: أمثلة

لعلنا نأتي الآن إلى ما هو الأهم في هذه الدراسة: الوعي الزائف أو الوعي المُزيف. ولتقريب الفكرة إلى ذهن القارئ وتوضيح ما نقصده بالوعي الزائف، ننتقل مما قد يبدو أفكاراً تجريدية إلى تناول بعض الأمثلة في واقعنا العربي، ونورد عينة من المقولات والشعارات والأوهام الكاذبة والتي أصبحت "مُسلمات" لا يرقى إليها الشك في اعتقاد الكثيرين.

قد تبدو هذه الأمثلة للوهلة الأولى منفصلة عن بعضها أو أنها تتناول قضايا غير مترابطة، ولكنها في حقيقة الأمر تترابط فيما بينها وتشكّل ساحات وجبهات من الصراعات المشتركة. وإذا حاولنا تجزءتها أو طمس عناصرها أو انتقاء بعضها، فإننا نكون مشاركين، بشكل أو بآخر في تزييف الوعي. فالوعي، كما الفكر، لا ينفصل عن حركة الواقع، وهذا الفصل، حين يحصل، لا يخدم الصراعات الاجتماعية والطبقية في المجتمع، بل يُوظف عملياً في تبرير سياسات وأيديولوجيا تقف في هذا الخندق أو ذاك في تلك الصراعات.

- المقولات الاستعمارية الكلاسيكية

تلك التي تدّعي أن الاستعمار الغربي جاء ليساند شعوبنا و"يأخذ بيدها" من أجل احراز التقدم والتطور وصولاً إلى الحرية والديمقراطية وغيرها. وقد ظلّت هذه المقولات سائدة في الثقافة والوعي الشعبيين في البلدان المستعمَرة، وما زالت حتى بعد الرحيل الشكلي للاستعمار.

- الطبقات الشعبية تخدم أعداءها

كثيراً ما نرى أن الطبقات الشعبية الفقيرة (العمال والفلاحون والفقراء ...) تدعم الطبقات التي تستغلها وتقع فريسة الوعي الزائف. وقد رأينا في التاريخ المعاصر العديد من الأمثلة الصارخة على ذلك، ثلاثة منها ما زالت حاضرة في الأذهان وجديرة بالدراسة وأخذ العبر:

أ) تصويت دعم العمال الألمان في ثلاثينات القرن العشرين للحزب النازي (حزب العمال الألماني الاشتراكي الوطني) والتصويت لصالح هتلر ما مكّنه من الوصول إلى السلطة ومنصب مستشار ألمانيا عام 1933.

ب) انتخاب قطاعات كبيرة من العمال والفلاحين والفقراء الأميركيين ل دونالد ترامب، الممثل المباشر لرأس المال الاحتكاري في الولايات المتحدة، وما زالت تؤيده وتدعم سياساته.

ج) وكذلك انتخاب بوريس جونسون، رئيس حزب المحافظين، رئيساً لوزراء بريطانيا بدلاً من جيرمي كوربن زعيم حزب العمال البريطاني.

ولا نقصد هنا تجاهل او التقليل من أهمية العوامل الأخرى التي ساهمت في الوصول الى هذه النتيجة. فلو أخذنا، على سبيل المثال، دعم العمال الألمان في ثلاثينات القرن العشرين للحزب النازي، لوجدنا عوامل هامة تسببت في هذا الدعم مثل: (1) الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية المتردية في فترة الكساد الاقتصادي الذي عمّ البلاد في تلك الآونة التي سبقت ورافقت وصول الحزب النازي إلى السلطة (1933)، ونسبة البطالة

العالية التي فتكت بالعمال والفقراء في المانيا، (2) تجاوب الحزب النازي مع مطالب ومصالح هذه الطبقات والتركيز عليها في عمله ونشاطاته الجماهيرية وهو الذي برع في أساليب الدعاية ورفع الشعارات التي تجذب الطبقة العاملة وتشدها إلى الحزب ودعمه، **(3)** بالإضافة إلى الشعبية الواسعة التي تمتع بها الحزب النازي بين صفوف الطلاب في الجامعات الألمانية.

والحقيقة أن هذه العوامل مجتمعة تأكد ما ذهبنا إليه: وهو دور الطبقة المهيمنة والحاكمة في تزييف وعي العمال والفقراء وجذبها لتأييد سياساتها.

مشاركة الفقراء في الحروب الإمبريالية

لعله من أفظع تجليات الوعي الزائف هو مشاركة الطبقات الفقيرة في الولايات المتحدة وبعض فئات الشعب الأميركي من السود والملونين والمهاجرين، في الحروب العدوانية الأميركية في العقود الأخيرة بدءً من الحرب الكورية، مروراً بحرب فيتنام ووصولاً الى الحروب على العراق وأفغانستان وغيرها.

يقدم كثيرون ذريعة تفاقم الأوضاع الاجتماعية - الاقتصادية (الطبقية) لهذه الفئات وحاجتها لتأمين مصدر دخلها ومعيشتها بالتحاقها بالقوات الحربية الأميركية، وهي ذريعة لا تبرر قتل ملايين الأبرياء وتدمير بلدان ومجتمعات برمتها. كما أنها لا تختلف في الجوهر عما أتينا على ذكره أعلاه في حديثنا عن دعم الطبقة العاملة الألمانية لهتلر وحزبه النازي. ناهيك عن أن مشاركة الطبقات الشعبية والفئات الاجتماعية الفقيرة في الحروب الأميركية تنطوي على سقوطها (الطبقات) في عنصرية الرجل الأبيض في نظرته إلى الشعوب الأخرى وعدائه لها، وهو من أفظع تجليات الوعي الزائف وأكثرها خطورة. كما تكشف "تفوق الرأسمالية في تشويه الوعي الجمعي وتعميمه بحيث يلتبس على الأكثرية الشعبية التقاط خبث الثقافة البرجوازية ممثلة في الديمقراطية والحرية والمجتمع المدني ... وصولا إلى التباس الوعي وحتى السقوط عنصرية بيضاء تغطي انتهازية ما مفادها: أن مستوى معيشتنا الجيد هو على حساب فقر هؤلاء". وهذا ما يطرح التحدي اليوم حيث تتخلى أنظمة هذه البلدان عن كهولها ومن ثم فقرائها!."

أكاذيب حول الاشتراكية

خلافاً للأكاذيب والبروباغندا المعادية والمشوهَة للاشتراكية والتي لم تتوقف منذ القرن التاسع عشر، والتي ازدادت شدةً بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، نسجل الملاحظتين التاليتين:

أ) الاشتراكية والاحتياجات الأساسية للناس: بغض النظر عن تقييم التجربة الاشتراكية في البلدان الاشتراكية السابقة أو العملية الاشتراكية الراهنة في الصين وكوبا وكوريا الشمالية، يجدر بنا أن نقف أمام حرص هذه الحكومات والأحزاب الحاكمة على توفير احتياجات سكانها الأساسية مثل الرعاية الصحية والتعليم والسكن وخدمات المسنين وغيرها، ورصد أجزاء كبيرة من ميزانية الدولة لهذه الخدمات، على النقيض من المجتمعات الرأسمالية. وقد جاءت جائحة كورونا التي تجتاح العالم في هذه الآونة لتقدم الدليل على ذلك.

ب) دور الصين وكوبا في التضامن الأممي ودعم الشعوب المنكوبة: يؤكد موقف هذه الدول بلا ريب ثبوت الاهتمام بالإنسان كأولوية في هذه البلدان، ويشير بوضوح إلى ما هو أبعد: قرار هذه الدول تجاوز الحدود الجغرافية لمساعدة الأمم المنكوبة وصولاً إلى موقف إنساني أممي، في حين يتقوقع راس المال المعولم على ذاته وأنانيته! وقد رأينا إسهامات كوبا في هذا المضمار، قبل جائحة كورونا وعلى مدى عقود، حين كانت تمد يد العون وتقديم الخدمات الصحية والطبية لدول العالم الثالث، وكما رأينا دعم الصين وكوبا وروسيا للشعب الإيطالي في غضون أزمة فيروس كورونا الذي اجتاحت ايطاليا في شهر آذار (مارس) 2020.

الرأسمالية: "تجسيد لحرية الفرد

يدّعي الغرب الرأسمالي الدفاع عن الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان سواء في بلاده أو في البلاد التي يسعى إلى الهيمنة عليها ونهب ثرواتها. غير أن هذا الموقف يتناقض تماماً مع سياسات الأنظمة الرأسمالية في التعامل مع شعوبها في الداخل وفي سياساتها الخارجية. وقد جاءت جائحة كورونا لتكشف وحشية مواقف هذه الأنظمة وضعف أدائها وعدم اكتراثها بصحة وحياة مواطنيها. وحتى داخل البلد الواحد شاهدنا تقاعس الحكومة الأميركية ومؤسساتها، مثلاً، في تقديم الخدمات الصحية الأساسية (مثل توفير أقنعة الحماية من عدوى موروثا وإجراء الفحوصات البسيطة للتعرف على مَنْ أصابهم هذا المرض ...)، كما رأينا التنافس والأنانية في الحصول على المستلزمات الصحية والمعدات الطبية بين المدن والمناطق في مختلف الولايات الأميركية فيما بينها، من جهة، والحكومة الأميركية الفيدرالية من جهة أخرى.

هذا على المستوى المحلي والداخلي، أما على مستوى العلاقات بين الدول والحكومات، فكان الأمر أكثر بشاعة ووحشية، إذ رأينا رفض هذه الدول للتضامن والتعاون فيما بينها، كما حصل بين الولايات المتحدة ودول الاتحاد الأوروبي، أو حتى بين دول هذا الاتحاد كما حصل حين رفضت ألمانيا وفرنسا، القوتان الرئيستان في ذلك الاتحاد، تقديم المعونات الطبية لإيطاليا من أجل إسعاف المصابين بهذا المرض في ذلك البلد في مارس 2020.

مسألة التناقض وتحديد معسكر الأعداء

مرّت بلادنا ولا تزال بتطورات خطيرة على كافة الأصعدة. وتم احتلال أراضٍ عربية وتدمير دولٍ ومجتمعات، ومع ذلك ظلّت مسألة التناقض الرئيسي غير محسومة عندنا. والمقصود هنا بالحسم أو عدمه هو تحديد طبيعة التناقضات (الرئيسية والثانوية) وأطرافها أي أطراف المعسكرين المتناقضين والمتصارعين: معسكر الثورة والقوى المتخندقة معها، وفي النقيض منه معسكر الثورة المضادة وقواها. وقد كان لهذا الضياع نتائج وخيمة على مجتمعاتنا وأوضاع شعوبنا وسيادة بلادنا، وكذلك على وعي الشارع العربي مما أخل بقدرته على الفعل وكان أحد أسباب شلله وصمته. ليست المسألة هنا مجردة أو نظرية، بل إن أهمية فهم التناقضات الرئيسية والثانوية وتحديد معسكر الأعداء تكمن في ضرورتها لاستعادة الشارع العربي والتي تستلزم:

1) بناء أو إعادة بناء الشارع الشعبي على أساس وعي جمعي مشترك، وهو ما يتطلب تثقيف المواطن وتوعيته بمسألة التناقض (الصراع) الرئيسي في بلادنا، كي يتمكن من اجتراح وسائل المقاومة ومحاربة الأعداء.
2) توحيد الشارع في اصطفافه ضد الأعداء، ما يعني العمل على إنهاء عوامل الفرقة من فتن إثنية ومذهبية ودينية وطائفية، وتثقيف المواطن على (1) أن صراعنا لا يقوم على اساس ديني أو مذهبي أو عرقي أو إثني، إنما هو صراع مع معسكر الأعداء وأدواته المحلية، و(2) أن تجنيد الدين أو المذهب أو الطائفة، ومَنْ يقف خلف ذلك من مفكرين ومثقفين وإعلاميين، هو من بدع وأساليب تيارات الدين السياسي الإسلامي وتوظيفه في ضرب تماسك المجتمع ووحدته حيال قضايا الوطن الأساسية.

الكيان الصهيوني ... بين العدو و"الجار"

سؤالان ملحان تطرحما المرحلة وما يجري من حولنا، سواء بالعلن أو بالسر:
هل الكيان عدونا؟
وهل هو العدو الوحيد؟

أ) إذا كنا نقرُ - وقد سال الكثير من الحبر في تكرار هذا وتأكيده على مدى العقود السبعة الأخيرة - إذا كنا نقرُ بأن الكيان الصهيوني والمشروع الصهوني برمته محتل عسكري استيطاني، وأنه موقع متقدم للإمبريالية في بلادنا، وجزء لا يتجزء من المشروع الرأسمالي - الإمبريالي، فكيف تهيأ لنا حسم الصراع مع هذا الكيان عبر المفاوضات؟ وكيف لنا أن ندرك أو نصدق أنه (الكيان) في حقيقة الأمر يريد حلاً لقضيتنا واحتلال أراضينا؟ أي كيف نتصور أنه يريد حلاً ينهي مشروعه؟ وكيف لنا أن نصدق بأنه (الكيان) يقبل بالمفاوضات أو يأخذها على محمل الجد أم أنه "يشارك" فيها ضمن استراتيجية كسب الوقت في حين يستمر في فرض سياسة الأمر الواقع وتجسيد المقومات المادية للتوسع والاستيطان والتهويد على الأرض العربية في فسطين.

ب) وإذا كنا ندرك، كما قيل مرّات لا تُحصى، أن الكيان الصهيوني لن يقبل باي اتفاق معنا، وأن وراءه الترسانة الإمبريالية الغربية، وأن وجوده منوط باستمرار الدعم والتوظيف الإمبريالي له، وأن سقوطه أيضاً مربوط بسقوط الإمبريالية، إذا كنا ندرك هذا كله، فسيكون من المنطقي أن نصل إلى الاستنتاج بأن صراعنا ليس معه وحده، وإن كان هو المحتل الاستيطاني المباشر لأراضينا في فلسطين المحتلة، بل إن صراعنا مع معسكر كامل من الأعداء: الرأسمالية - الإمبريالية، الكيان الصهيوني، والأنظمة العربية الرجعية والتابعة للمركز الرأسمالي.

نشوء الأمة العربية جاء مع قدوم الإسلام

منذ صعود تيارت الدين السياسي - الإسلامي وحركاته في سبعينيات القرن العشرين، في سياق تداعيات هزيمة حزيران 1967، شاهدنا التركيز على الأفكار والمقولات التي تدّعي أن نشوء الأمة العربية وبدايات تاريخها جاء مرافقاً لظهور الإسلام في شبه

الجزيرة العربية. وبالطبع، ليست هذه المقولات جديدة، وليس جديداً أنها لم تتوخى الأمانة العلمية والتاريخية، بل ما يهمنا الإشارة إليه هو أنها تسعى إلى طمس تاريخ العرب وهويتهم القومية وإسهاماتهم الحضارية والثقافية الجليلة عبر قرون عديدة في حقبة ما قبل الإسلام.

ما هي هويتنا؟ مَن نحن؟ ما هو اسمنا؟

لقد فقدنا منذ أمد القدرة على تحديد هويتنا واسمنا وجغرافيتنا، وتركنا للآخر حق القرار. ولعلنا من تلك الأمم التي تأخرت في التغلب على الخطاب والهيمنة الإمبرياليين. فلا يزال الآخر هو الذي يحدد لنا هويتنا ويفرض علينا تعريفه لـ"مَنْ نحن"، ويرسم لنا حدود وجغرافيا بلادنا واسمها أو اسماءها.

فما أن انهارت الأمبراطورية العثمانية (1918) ومن بعدها زوال الخلافة الإسلامية (1924)، حتّى كرّس الاستعمار الأوروبي هندستة السياسية لبلادنا ورسم حدودها، كما فعل في العديد من بلدان العالم الثالث. وقد أفضى ذلك إلى حالتنا الراهنة من فرض هويتنا "الكيانية" والقُطْرية، والانفصام المزمن بين الذات/الهوية من جهة، والاسم والجغرافيا من جهة أخرى.

هكذا شاعت في لغتنا وخطابنا مفردات ومصطلحات تعكس كيف ترانا عيون الآخر المحتل أو المستعمِر أو المهيمن: شرق أوسط، عالم عربي، والآن تفتقت عقولهم عن تسمية جديدة فأخذ بعضهم يسمينا "غرب آسيا". وهكذا أيضاً اختفت من تاريخنا أسماءٌ أخترناها لأنها عبرت عنّا وعن هويتنا: الوطن العربي، المشرق العربي، بلاد الشام، سورية الطبيعية، المغرب العربي .... وغيرها.

الاحتلال الذي دام أربعة قرون ... ليس "احتلالا"!

يتنكر كثيرون من مروجي مقولات وإدعاءات الدين السياسي الإسلامي لطبيعة الاحتلال العثماني - الذي جثم على صدورنا أربعة قرون ودمّر البنية التحتية لمجتمعاتنا وأعاق تطورها وإبقاها على حالة التخلف والانحطاط - ويدّعون أنه ليس احتلالاً بل هو خلافة عثمانية أو خلافة إسلامية، أو جامعة إسلامية، أو سلطنة عثمانية وعهد أو حكم عثماني وغيرها من المسميات. وقد استغلوا في ترويج هذه الإدعاءات العاطفة الدينية لدى شعوبنا، عاطفة الأخوة والجامعة الإسلامية، وحالة التدين التي تعيشها جماهيرنا، وذلك من أجل تضليلها وابتزازها سياسياً واقتصادياً ونهب ثرواتها.

والحقيقة أن هذه الإدعاءات تنطوي في جوهرها على تنكر للعروبة وإنتماء المواطن العربي لوطنه والوفاء له وثقته بنفسه، وذلك من أجل تبرير سياسات حركات الدين السياسي المتحالفة مع تركيا، والتي أصبحت جليّة في سنوات الحرب على سورية واتخذت كافة أشكال العدوان، السياسية والعسكرية والإرهابية، على هذا البلد العربي وشعبه، وها هي اليوم تكشف بوضوح عن مخططاتها المعادية لليبيا وشعبها.

الدين السياسي: "عالمية" الإسلام ... أم غطاءً لمعادة العروبة

تدّعي حركات الدين السياسي الإسلامي، وعلى رأسها حركة الإخوان المسلمين، أن دعوتها دينية دعوية تبشيرية لأن رسالة الإسلام (والدين بشكل عام) عالمية وللبشرية بأسرها. ويستندون في ذلك إلى أن قيم الدين الروحانية والإنسانية النبيلة تصلح للبشرية جمعاء ينبغي أن تشمل كافة الشعوب. ولكن الحقيقة أن هذه الإدعاءات ليست سوى غطاء لأجندة ومصالح سياسية معادية لشعوبنا ومصالحها ووحدتها. هذا بالإضافة إلى أن حركات الدين السياسي، أي دين، تناقض هذه الفرضية. ففي فضاء السياسة يحدد الدين السياسي مواقفه ورؤيته للعالم: فهو عالم كما يراه هو، أمّا الآخر (ورؤيته للعالم) فهو مرفوض وكافر. وهذا ما نراه بشكل خاص في الحركات التكفيرية التي تنتهج نهجاً مغلقاً متزمتاً في العلاقات بين الأديان والشعوب يتسم بالعصبيات الدينية والمذهبية والطائفية ويعادي الآخر ويرفضه ويحلل قتله. وهكذا وصلت الإنسانية إلى الحروب الدينية والتناحر الطائفي.

إن فهم الواقع والعالم على أساس إدعاءات الدين السياسي، يطمس الحقيقة ويغيّب تماماً فهم ما يجري من حولنا، أي فهم القوى الاجتماعية والطبقية ومصالحها التي تحرك المجتمع والتاريخ، ويغطي على حقيقة أن الصراعات الاجتماعية وتناقض المصالح الاجتماعية والاقتصادية والسياسية هي أساس الصراعات في المجتمع والعالم، وليس اختلاف الدين أو المذهب أو الطائفة.

لا أريد أن اثقل على القارئ بالمزيد، فهناك الكثير من الأمثلة، أورد بعض عناوينها دون الدخول في تفاصيل نقاشها، تاركاً للقارئ التأمل وإعمال العقل والمنطق في صحتها وراهنيتها:

- السوق الحرة هي الطريق إلى التنمية والازدهار الاقتصادي
- الشيوعية مرادفة للإلحاد والانحلال الأخلاقي
- أوروبا هي مركز الحضارة والتقدم بل هي مركز التاريخ
- إيران هي العدو الرئيس للعرب وللأمة العربية (اي إسقاط الكيان الصهيوني كعدو رئيس)
- لقد احتل الأميركيون العراق من أجل الدفاع عن حرية وحقوق العراقيين وجلب الديمقراطية إلى هذا البلد
- أسباب الصراعات في بلادنا تعود إلى اختلاف وتنوع الأديان والمذاهب والطوائف، وعلى رأسها الخلاف السني - الشيعي.

خاتمة

لا يتسنى تقييم الواقع وفهمه، وفهم المرحلة التي يمرّ بها المجتمع، بمعزل عن دراسة العوامل الرئيسية التي صنعت أحداث هذا الواقع وتاريخه وأوصلتنا إلى ما نحن عليه. فحاضرنا، والمرحلة التي نعيشها، هي امتداد لهذه المسيرة. لذا، يصبح من المنطقي والضروري أن نفكك مكونات الواقع وقضاياه وتعقيداته، لا بهدف عزلها عن بعضها، بل بغية فهم الواقع فهماً شاملاً ودقيقاً وأميناً. وهذا لا يتم دون نهضة فكرية وسياسية ترتكز على قاعدة صلبة من الوعي الشعبي.

لهذه الأسباب ذاتها، يظل تزييف الوعي الشعبي - على الرغم من تعدد أسبابه والعوامل المؤثرة فيه وكثرة الكتابات التي تتناولته - يظل في الجوهر محكوماً بآفاق الصراعات الاجتماعية والسياسية ومصالح القوى المتصارعة، ولذا فهو يدور في سياق الصراع الطبقي ويشكّل احدى آلياته بامتياز، أي سلاحاً بأيدي قوى الثورة المضادة في سياق الاستغلال الطبقي والوطني للشعوب والطبقات الشعبية الفقيرة من أجل خدمة مصالح الطبقات المستغِلة.

من هنا، فإن تعرية التزييف الذي حلّ بالوعي الشعبي ووعي الطبقات الشعبية العربية والتأسيس لوعي حقيقي جذري وثوري، هي احدى المهمات الأساسية والملحة للقوى الثورية العربية والقوى الطبقية وقيادتها التي تضطلع بالدفاع عن مصالح هذه الطبقات.

يُفضي بنا هذا الاستنتاج إلى المعضلة المزمنة التي نعاني منها وهي إشكالية التناقض القائم بين (1) مهمات المرحلة ومقتضياتها من جهة، و(2) قدرة القوى الطبقية الثورية وقيادتها على إنجاز هذه المهمات، وهو ما يشكل تحدياً تاريخياً في مستويين:

الأول، المستوى الموضوعي: الصراع مع معسكر الأعداء (الرأسمالية - الإمبريالية والكيان الصهيوني والأنظمة العربية الرجعية والتابعة لهما)؛

والثاني، المستوى الذاتي: بناء قدرة القوى الطبقية الثورية (التنظم الثوري، النظرية، الرؤية، القيادة، البرنامج النضالي وأدوت تحقيقه).

ليست التحديات التي تمر بها شعوبنا حصراً على أمتنا، رغم شدة استهدافها وخصوصيات الحالة العربية الذاتية والموضوعية. فكل الشعوب تواجه في مرحلة ما أزمات وتحديات، وفي مواجهة هذه التحديات ومعالجتها تقف صعوبات وعقبات كثيرة، وكثيراً ما تقع الشعوب في إخفاقات وأخطاء، كبيرة وصغيرة. غير أن الشعوب التي لا تواجه الأخطاء الكبيرة والقاتلة، والتي لا يكون بمقدورها التعامل معها ومراجعتها ومعالجتها، نراها تلجأ إلى تجاهلها، علّ الحل يأتي "بقدرة قادر" أو بمرور الحدث أو يَسقط عليها من السماء "بإرادة إلهية". غير أن التاريخ يؤكد أن مشاكل هذه الأمم والمجتمعات تزداد تعقيداً وتفاقماً لتفتك بها دون رحمة.❑❑

UNIVERSITY OF TORONTO

– كليلة ودمنة –
وثيقة سياسية غرضها المقاومة

د. نعيمة عبد الجواد
مصر

❑ تعج الفنون والآداب باستخدام الرموز للتعبير عن أفكار ومعاني عميقة بأسلوب مستتر؛ بغرض إما تلافي الشبهات أو العقاب، أو لتعميق معنى العمل الأدبي أوالفني وإعطاؤه أبعاد متعددة، تختلف حسب وجهة نظر المتلقِّي وثقافته. وبما أن الشعر من أول نماذج الفنون في الحضارة العربية القديمة، صار استخدام الرمز حرفة يفخر بها فحول الشعراء؛ كدليل القدرة على تطويع اللفظ والمعنى. ومع تنامي الفتوحات الإسلامية وفتح الأمصار المختلفة، انطلق الأدب العربي في أفق رائدة جعلته يتفوق حتى على الأمم التي نهل من علومها.

ومن أفضل الحكايات الرمزية التي ظهرت في الحضارة العربية والتي أصبحت علامة بارزة في الأدب العالمي منذ العصور الغابرة وحتى وقتنا الحالي هي كتاب "كليلة ودمنة". ويعد هذا الكتاب أحد الدرر الخالدة التي تعكس فكر راجح، سواء في المضمون أو في تقنيات السرد.

من الصادم معرفة أن هذا الكتاب الموجَّه للأطفال، ويستمتع بحكاياته الكبار، هو عمل أدبي سياسي، بيّن أسس العدل، ويعرض منهاج أخلاقي راقي يجب أن يتبعه الحاكم مع رعيته؛ لتحقيق الأمان والرخاء.

وكتاب "كليلة ودمنة" هو أحد روائع الكاتب العربي النابغة "عبد الله بن المقفَّع"، الذي أخرجه للعالم العربي خلال أولى حقب العصر العباسي، والتي تسمى بالعصر العباسي الذهبي؛ نظرًا لازدهار حركة العلوم والفنون. وترجم "ابن المقفَّع" هذا الكتاب من أصله الفارسي، وأبدع في ترجمته؛ حيث أعاد صياغة الحكايات بأسلوب أدبي شيّق ورائع. وكثيرًا ما يُشاع أن "عبد الله بن المقفَّع" ذاته هو من قام بتأليف هذا الكتاب السياسي المغزى، لكنه أراد أن ينفي ذلك عنه بإحالته لأصل أجنبي حتى يفلت من بطش الخليفة "أبي جعفر المنصور" الذي ضاق به لنقده إيّاه.

ويعود ظهور هذا الكتاب إلى عام 200 قبل الميلاد في الهند، حيث ظهر باللغة السنسكريتية تحت اسم "بانتشاتانترا" Panchatantra، وتعني "خمس رسائل". وكما ورد في مقدمة الكتاب، تم التأليف من قبل الحكيم الهندي "بَيْدَبا" الذي أهداه للملك "دَبشليم". وسبب التأليف ترجع لحقبة ما بعد غزو الاسكندر الأكبر للهند. فلقد ولى عليها حاكمًا من جيشه، لكن لم يتقبَّله أهل الهند. ومن ثمَّ، قام بتعيين حاكمًا هنديًا يدعى "دَبشليم"، والذي كان في مستهل فترة حكمه عادلًا، لكنه فيما بعد تحوَّل إلى طاغية. وعلى إثر ذلك، توجَّه له أكبر حكماء الهند، الحكيم "بَيْدَبا" ليوضح له ما ألمّ به من بطش ويسأله أن يؤوب لسابق عدله، إلا أن الملك غضب منه وأودعه بالسجن.

وبعد أن تَفَكَّر الملك فيما أفضى به الحكيم، أخرجه من السجن وطلب منه أن يعيد على سمعه ما حدَّثَه به سابقًا. وبعد اقتناعه، طلب من الحكيم تأليف كتابًا؛ ليكون نبراسًا في العدل. فطلب منه الحكيم أن يمهله حولًا كاملًا. وبعد إنقضاء العام، رجع للملك الحكيم "بَيْدَبا" بكتاب يفهمه العامة والخاصة، ويستظل بحكمته حتى الأطفال.

ويحكى أن الملك بسبب الحكم الواردة بالكتاب آب للعدل، وعمَّ المملكة الرخاء بعد أن أمر الملك نشر حكايات الكتاب على العامة وتعليمهم حكمتها. وقيل أن الملك اعتبر الكتاب ثروة قومية، فأخفاه في خزائنه. لكن "آن شيروان" كسرى بلاد الفرس أرسل أحدهم للهند للحصول عليه. فذهب طبيبًا عالمًا بالسنسكريتية، واختلط بالعامة، وعلِم الحكايات، ثم ترجمها إلى الفارسية الفهلوية.

وأصل الكتاب - سواء السنسكريتي أو الفهلوي مفقود منذ القدم- وعلى هذا لجأت شعوب العالم إلى الترجمة العربية المعدَّلة التي ظهرت على يد "ابن المقفَّع"، بل وتم اعتمادها كأصل موثوق فيه.

وكتاب "كليلة ودمنة" هو مجموعة من القصص المتعاقبة المتداخلة مع بعضها البعض، تُروى على لسان الحيوانات، وتحكي عما يدور من صراعات ومفاسد وفتن في مملكة الحيوان للترهيب من عواقبها الوخيمة. والقائم على رواية القصص هو "كليلة" الحكيمة حصيفة البيان و"دمنة" سيئة الحظ التي تحيط بها المُشكلات، وكلاهما من فصيلة "بنات آوَى"، وهي حيوانات من عائلة الكلبيات، تشبه الثعلب، لكنها ذات ساق طويلة. بالإضافة إلى شخصية الأسد الذي يلعب دور الملك، وخادمه (أو بالأحرى وزيره) الثور "شِتْرِبه".

ويقع الكتاب في خمسة عشرة بابًا شاملة بابًا أضافه "ابن المقفَّع" ذاته للحكايات الرئيسية وأسماه "الفحص عن أمر دمنة"، بالإضافة إلى أبواب أربعة أخرى أضافها، ولم تكن بالنسخة الفارسية.

وتقنية السرد في "كليلة ودمنة" هي في حد ذاتها ثورية؛ حيث أنها تقع في قصة إطارية تضمَّ بداخلها العديد من القصص المُضمَّنة. وبوادر السرد الإطاري مستهلها في مقدمة الكتاب؛ حينما تروي شخصية "حسن بن الشاه" قصة غزو الاسكندر الأكبر الهند، ثم تعيين "دَبشليم". وفيما بعد، تظهر القصة الإطارية في ثلاثة مستويات تتمثل في خطاب الملك "دَبشليم"، وخطاب الفيلسوف "بَيْدَبا"، والتماثل المتكافئ، حينما يتحدث "دَبشليم" مع "بَيْدَبا"، ويلي ذلك رواية حكايات الكتاب بتكنيك القصص المُضمَّنة؛ حيث يضمّ الكتاب 14 حكاية مُضمَّنة كبرى تتفرع منها 32 حكاية مُضمَّنة صغرى، بالإضافة إلى حكايات جزئية متفرِّعة عن الصغرى، وأخيرًا حكاية فرعية متناسلة من الحكاية الجزئية الصغرى. مع ملاحظة أن الحكاية المضمَّنة لا تلغي دور الحكاية الإطار، والعكس صحيح؛ لأن كلاهما يُكْمِل دور الآخر، وإلا فُقِد المغزى السياسي الإصلاحي الذي صيغت من أجله تلك الحكايات.

ويقِّر الغرب بتأثُّرهم بالرمزية العربية المثمثلة في "كليلة ودمنة" الذي صار علامة في الأدب العالميّ. وفي العصر الحديث، ظهرت روايات عالمية، تنبثق من الفكر السياسي التقدُّمي الواضح في حكايات "كليلة ودمنة". ومن أشهر الأعمال العالمية السياسية الحديثة المرتكزة على الرمزية التي تجعل العمل يبدو وكأنه قصص موجهة للأطفال، ولكنه في حقيقة الأمر عملًا ينتقد النظام السياسي في البلاد – هي رواية "مغامرات أليس في بلاد العجائب" (Alice's Adventures in Wonderland 1865) للكاتب الإنجليزي "لويس كارول" Lewis Carroll والتي ينتقد فيها حكم "الملكة فكتوريا" بطريقة غير مباشرة تجنبه الإطاحة به. وأما رواية "مزرعة الحيوانات" (The Animal Farm 1945) للكاتب الإنجليزي جورج أورويل George Orwell فهي تنقد بقسوة النظام الشيوعي في روسيا من خلال قصة تتمحور حول حيوانات في مزرعة.

يعج الأدب العربي في عصوره الذهبية بنماذج مشرقة نهل منها العالم أجمع، فلقد تأثَّر به العالم نظرًا لاستحسانهم حرفيته. فلا عيب أو ضير في التأثُّر بتجارب الآخرين. لكن، كلّ العيب هو حصر الذات الابداعية في التقليد دون ضخ دماء التجديد في المحتوى الأدبي والعلمي ❑❑

UNIVERSITY OF CALGARY

انهم ينقسمون انها فرصتنا

عدنان الصباح
فلسطين

❑ تماما كما كان حالنا ايام الانقسام وما تلاه من فرصة واتت دولة الاحتلال للبطش بنا منقسمين وتديمنا للعالم على اننا لا نستحق دولة ولا يمكننا ادارة دولة وظهرت ورتنا امام العالم بأبشع ما يكون وغابت كليا صورة الشعب المظلوم والواقع تحت الاحتلال شعب المقاومة والتضحية لتطفو على السطح صورة المتصارعين على سلطة وهمية غير موجودة على الارض متصارعين على حكم لا يحكم وقد استفادت دولة الاحتلال من ذلك بكل الوسائل والطرق فالى جانب تدمير الصورة الناصعة استطاعت دولة الاحتلال ان تمعن في الاستيطان وان تجد سبيلا دوليا لشرعنة ضمها للقدس كعاصمة لها وتهويد ما يمكن تهويدة وتجرأت على المقدسات واهمها المسجد الاقصى وفتكت بغزة بكل ما اوتيت من قوة واحكمت عليها الحصار واستفادت من انشغالنا بذواتنا بفتح ابواب قصور عديد الدول العربية امامها واغلاقها بوجوهنا واستفادت بانها قدمت نفسها كدولة بعكسنا متماسكة ونموذج للدول الغربية المتحضرة والعرية والديمقراطية.

كان يوم غد السبت سيكون عرسا فلسطينيا بامتياز لو اننا وصلناه موحدين لنشاهد كيف تنهار الديمقراطية وتنتصر الفاشية والعنصرية ويكتوي اهلها بنارها بعد ان اعتقدوا انها حكر علينا ويصدق ما قلناه ان المجتمعات التي تستخدم الفاشية ضد غيرها عادة ما تكتوي بنفسها بهذه الفاشية ونارها ونحن نرى نصف المجتمع يدافع عن الديمقراطية اليهودية بينما يقاتل الظلاميين بقيادة مجموعة من المتضررين من القضاء والديمقراطية, كنا سنظهر باهى صورنا لو اننا بنينا نظاما قضائيا فلسطينيا مستقلا ونزيها وكرسنا فصل السلطات والتداول الديمقراطي للسلطة في حين يهدمون هم نظامهم القضائي علنا بالاعتداء علية بأبشع الصور... كنا سنظهر متحضرين وديمقراطيين لو اننا حافظنا على بيتنا التشريعي متعددا ومشرعا ومراقبا ... كنا سنظهر اقوياء لو ان الجميع اختلف تحت قبتي المجلس التشريعي والمجلس الوطني وقبل بحكم الاغلبية واحترمت هذه الاغلبية حقوق غيرها ... كنا سنظهر بكل النزاهة لو اننا اجبرنا العالم على المقارنة بين قيادة فلسطينية شفافة ونزيهة وقيادة صهيونية فاسدة ومحكومة بجرائم تطال المال العام وكانت الغلبة ستكون لنا بكل المقاييس

في 2023/1/14 ستظهر دولة الاحتلال بلونين متناقضين حد الصراع وحد التخوين وحد التكفير فالحكم يطالب بقمع المظاهرات واعتقال قادة المعارضة ومحاكمتهم ويمعن في تكريس دولة الاحتلال ليس كدولة يهودية بل كدولة ظلامية عنصرية ليس ضد العرب فقط ولا على اساس الدين والقومية ولكن قبل العرب ضد اليهود الذين لا يؤمنون بما يؤمنون به ... غدا هو يوم فضح حكومة الخارجين عن القانون بزعامة الفاسد الاول نتنياهو والثاني درعي والارهابيين بن غفير وسموتريتش فما هي خطتنا نحن هل سنرى ردا فلسطينيا حقيقيا بانتقال الرئيس محمود عباس غدا الى غزة لالتقاء على ارضها بقيادة حماس والجهاد الاسلامي والاعلان عن القاء الانقسام بمزبلة التاريخ وتكليف اسماعيل واعادة العمل للمجلس التشريعي لستين يوما بحكومة يراسها مستقل ولها مهمة واحدة الانتهاء من الانتخابات التشريعية والرئاسية في يوم واحد في حين يقوم المجلس التشريعي عبر حراك وطني عام بمراجعة سائر القوانين بمرسوم أيا كانت وتصويبها ان احتاجت او الغائها او تثبيتها بارادة كل الشعب تاركا التصويت النهائي والمصادقة للمجلس الجديد المنتخب.

غدا فرصة كل الشعب الفلسطيني ان ينشغل داخليا دون ان تأخذه العزة بالإثم ودون ان يعتقد أيا كان ان دولة الاحتلال ستنهار وحدها فان لم نتحد جميعا تحت سقف برنامج سياسي وطني يستند الى جدار المقاومة بكل اشكالها فان دولة الاحتلال ستهرب من صراعها الداخلي للرقص متحدين على دمنا المهدور بعرفهم لكل من شاء منهم ولن تجد الحكومة الفاشية من وسيلة لإخراس اصوات المعارضة أو تحويلهم الى خونة الا بإعلان الحرب علينا في كل مكان وبكل السبل لكي تسكت اصوات لبيد وغانتس ويعودون مجبرين على الاصطفاف من خلف الصهاينة الفاشيين والفاسدين.

انها فرصتنا ان نتحد ... انها فرصتنا ان نكشفهم على حقيقتهم ... ان فرصتنا ان ينكسروا من داخلهم وننتصر من داخلنا مقدمة ضرورية للانتصار بحقوقنا ولها شعبا وارضا تحريرا وحرية وعلى الشعب الفلسطيني جميعا وخصوصا المقاومة في غزة واهلها ان يدركوا جيدا ان لا خيار امام حكومة المحتلين الفاشيين الفاسدين من خيار سوى الهروب الى حل عسكري لنزع فتيل الازمة الداخلية ولن يكون ذلك الا بافتعال الحرب على غزة وممارسة كل اشكال الارهاب في الضفة الغربية في ❑❑

الكارتل الأسدي وتحويل سورية إلى كَبتاغونيا

د. ياسين الحاج صالح
سورية

❑ سورية مركز متقدم لصناعة الكبتاغون بحسب صحيفة الغارديان البريطانية، تنتجه على نطاق صناعي، وما تمت مصادرته من هذه التجارة المحرّمة دولياً يتراوح بين خمس مليارات ونصف وست مليارات دولار عام 1921، أما ما لم ينكشف فلا يقل عن 5 أضعاف ما صودر، وقد يبلغ عشرين ضعفاً، ما يتجاوز 100 مليار دولار إن صح هذا التقدير الأخير، ويقتصر على ما بين 25 و30 مليار دولار إن كان التقدير الأول هو الأصح. الأمر لا يصدق في الحالين، لكن ما لا يصدق هو ما لا يكف عن الحدوث في "سورية الأسد"، وهي بنية سياسية قائمة على تجاوز الحد في كل شيء. بالمقابل، حجم تجارة المخدرات، غير الشرعية بطبيعة الحال، بين المكسيك والولايات المتحدة يبلغ ما بين خمسة وسبع وصنف مليار دولار. أما صادرات سورية الشرعية فلا تتجاوز 800 مليون دولار، بالكاد سُبع ما تم مصادرته من كبتاغون، وأقل من 3% من سعر السوق المحتمل لما لم يتم كشفه.

في هذا، الحكم الأسدي لا يقف جانباً ويسمح بإنتاج المخدرات وتصديرها، بل هو بالذات كارتل الصناعة والتصدير، بحسب جويل ريبورن، المبعوث الأميركي الخاص السابق إلى سورية. ريبورن يقول، بحسب ما نسبت إليه درشبيغل الألمانية في تقرير نشر قبل أسابيع، إنه يعتقد بأن نظام الأسد لن يبقى إذا خسر عائدات الكبتاغون. والمشرف على نقل الكبتاغون ليس أحداً غير ماهر الأسد، شقيق بشار وقائد الفرقة الرابعة في الجيش الأسدي، ونائبه غسان بلال هو مسؤول العمليات والربط مع حزب الله، الشريك في هذه التجارة العابرة للحدود. وكان أيمن الجابر، صهر عائلة الأسد، المخطط الرئيس لتهريب مخدرات حزب الله إلى بعض الدول، انطلاقاً من ميناء اللاذقية الذي كان يديره بعد فواز الأسد، قبل أن يفقد حظوته. أما السوق الداخلية لهذه الصناعة فتبدو محدودة، وإن تواترت معطيات عن تأثيرها المخرب، حتى في الجامعات. وتستخدم في هذه التجارة المسلحة مجموعات خاصة مثل عصابة الحوت من صيدنايا التي أعطاها الكارتل العائلي امتياز تهريب بعض "كوكايين الفقراء" هذا، لضمان ولاء صيدنايا ومسيحييها للنظام بعد الثورة، بحسب تقرير درشبيغل نفسه. وهناك شبكة من أسر الجريمة وقادة ميليشيات وشخصيات سياسية، ممن لا يكن المساس بهم بحسب تقرير الغارديان، يشكلون كارتلاً عابراً للحدود لتوزيع هذه الكميات الصناعية من الكبتاغون.

ومثلما أن بعض كبار عملاء الكارتل تحولوا لتوهم من أمراء حرب إلى أمراء مخدرات، فإن دولة المخدرات السورية استمرار لحرب الحكم الأسدي بوسائل أخرى، وليست نتاج استيلاء عصبة مخدرات على السلطة، أو شرائها للسياسيين، مثلما هو الحال في أمثلة أسبق من أميركا اللاتينية. في سورية، الدولة استولت على المخدرات وصارت تاجرة ومحتكرة لها.

امحاء الفرق بين السياسة والجريمة قديم في سورية قدم حكم هذه العائلة. يروي راتب شعبو في كتابه "كأجراس بعيدة" أن حافظ الأسد كان يضحك حين تنقل له قصص ابن أخيه فواز، ومنها أن يدخل مقصف الجامعة في اللاذقية، ويجبر جميع رواده على الاختباء تحت الطاولات إلى حين ينتهي هو من تناول قهوته، ويجبر شاباً برفقة فتاته على أن يقف على إحدى الطاولات ويهتف بأعلى صوته "أنا حمار". لم تكن هذه بالضبط استجابة "الأب القائد" على أي معارضين سياسيين لنظامه. في أحسن الأحوال يتعرضون للتعذيب ولسنوات طويلة في السجن، قبل أن يحاكموا بتهم النيل من هيبة الدولة وتوهين نفسية الأمة.

امحاء الفرق بين الاقتصاد والجريمة قديم بدوره إن استذكرنا تجارة رفعت الأسد بالآثار السورية منذ سبعينات القرن العشرين. بالمناسبة، عرضت أملاك رفعت، ومنها قصره في شارع فوش الراقي في باريس، في مزاد علني مؤخراً، تألف كاتالوغه من 260 صفحة، وتعرض فيه مقتنيات تتراوح بين سجاد أصفهاني من القرن السّادس عشر، ولوحات فنية فرنسية أصلية، وثريات فاخرة وخزانة مذهبة الأدراج، و500 من النفائس. وبحسب مصطفى طلاس، فإن حافظ أعطى لأخيه رفعت مبلغ 500 مليون دولار استدانها من معمر القذافي عام 1984 "خُلوّ منصب"، بعد محاولة رفعت الاستيلاء على سلطة أخيه المريض وقتها.

على أن التحول إلى دولة مخدرات يبقى تطوراً مهماً من حيث أنه سعي لجني المال عبر الجريمة المنظمة وعلى نطاق إقليمي ودولي، دون وساوس بخصوص الكلفة البشرية لذلك. فالأمر بحسب تحقيق حديث لسبكتاتور البريطانية يتعلق بنظام قتل عشرات الألوف [مئات الألوف في واقع الأمر] من شعبه كي يبقى في السلطة.

وراء إرادة العائلة الجانحة الاستقلال بمواردها عبر المخدرات تقدم دمار البنية الإنتاجية المهملة أصلاً والمتقادمة تكنولوجياً وتأهيلياً في سورية، وتحلل البنية الاجتماعية ذاتها بفعل التكوين العصابي للحاكمين الفعليين والإفقار الشامل للمحكومين، وهما معاً في خلفية الثورة والحرب في سورية. الواقع أن العائلة الأسدية ونظامها لم تكن قط قريبة من عالم العمل والإنتاج وقيمهما. استثمرت في قوة السلاح لجني الثروة، وتاريخها هو تاريخ الانتقال من الاستيلاء على السلطة إلى الاستيلاء على المجتمع والاقتصاد، وصولاً إلى تغيير السكان بعد الثورة. منذ النصف الثاني من سبعينات القرن العشرين، وبترابط وثيق بين ريوع تحصلت من دول الخليج بعد الصدمة النفطية الأولى إثر حرب 1973 وبين التحول البريتوري للنظام، أخذت قيمة العمل بالانهيار كنصيب من الدخل الوطني، لتصل إلى نحو 39% منه عام 2010 (الرقم المقابل أكثر فوق 60% في البلدان الرأسمالية)، ومعها انهار مجتمع العمل، أي من يعيشون من عملهم، لمصلحة قيم السلطة والمال والقرابة. الثورة السورية هي ثورة مجتمع العمل، أي من تدهورت مقدراتهم المالية، مع كونهم كذلك بلا سلطة ولا واسطة.

وبتكوينه كقوة مسلحة ذات تماسك خاص، لم يقم الحكم الأسدي يوماً على تحالف اجتماعي قد يدخل شيئاً من المرونة والتعدد في مراتب الحكم العليا، فيتيح للمحكومين هامش مناورة حيال المتحالفين أو زحزحة ولاءاتهم من أحد مكونات التحالف إلى مكونه الأخر. ما وجد هو إعطاء امتيازات لأفراد ومجموعات هنا وهناك، نظام تنفيعات، يسهل للبعض الحصول على منافع اقتصادية أو نفوذ اجتماعي، لكن من التساهل المفرط تسمية ذلك تحالفاً. الغلبة الأمنية العسكرية والدور الحاسم لأجهزة القوة لم تتح لأي مجموعة في سورية، طبقية أو أهلية أو إيديولوجية، أن تلعب دوراً مستقلاً ولو في حده الأدنى. تحطيم المنظمات الاجتماعية والسياسية المستقلة ينبع من تكوين النظام المضاد للسياسة، وليس شيئاً حدث لحماية توازن تحالف حاكم.

وليس فقط لم تتغير هذه البنية حتى بعد حربين أهليتين، كبيرة وأكبر، بل تعزز فيهما وزن السلاح والقوة الخام، وتهرأت وتداعت أي ادعاءات وطنية وقومية عامة، كانت من أدوات النظام في العيش على حساب السوريين وابتزاز المحيط العربي. لم يعد يستطيع جني شيء مهم من السوريين الذين يعيش نحو 90% منهم تحت خط الفقر، واستهدافه لمجتمعات الخليج، السعودية بخاصة، بالكبتاغون والحشيش، هي بمثابة تعويض للريع النفطي، وفي الوقت نفسه حرباً ضد مجتمعات هذه البلدان من مافيا لا انتماء لها لغير سلطتها وثروتها. الكبتاغون ليس تجارة، إنه إعلان حرب؛ ولا تتكون حول هذه المورد طبقات وشرائح اجتماعية، بل عصابات ومافيات.

العلاقة عارضة بين كون الكبتاغون والحشيش مصدر 90% من العملات الأجنبية بيد الحكم الأسدي في سورية بحسب تحقيق صحيفة سبكتاتور وبين عيش 90% من السوريين تحت خط الفقر. لكن إذا نظرنا في أصول هذا الفقر وذلك الثراء، فإننا نجد لهما جذراً مشتركاً: التكوين المافيوي المسلح للطغمة الحاكمة ❑❑

الأمازيغية حين ترفض بهواجس عنصرية

عذري مازغ
المغرب

قتل الروح

❑ الإشكالية التي نريد حلها هي: لماذا حين تهتم مجموعة معينة في دراسة اللغات المحلية تصبح المشكلة معقدة لدرجة تتداخل فيها قضايا اجتماعية وسياسية بشكل تطاحني؟

يمكن فهم هذه الإشكالية قبل ولادة الدولة المدنية حين كانت التجمعات البشرية تتحدد بسبب العرق او بحسب العصبيات القبلية القديمة بمفهوم ابن خلدون والتي كان سياقها طيلة قرون هي من يحدد هرم السلطة السياسية في الإمبراطوريات والمملكات القديمة وكانت العصبية في سياقها الخلدوني هي تحالف قبلي قوي تلحمه اللغة والثقافة والعادات والترابطات الاجتماعية من خلال الروابط الاجتماعية والإتفاقات وغيرها.. وبشكل عام كل ما يقوي عصبية معينة بشكل يؤهلها كي تسود ولعل مقدمة ابن خلدون مطنبة في هذا السياق في شرح الدورة الزمنية للحكم في عصره، كانت العصبية هي أس القوة في تكوين دولة جديدة وكانت هذه الدولة من خلال أزمنتها البنيوية يطول حكمها أو يقصر بناء على ما تستثمره من قوة في سيرورتها التاريخية من خلال عقود الولاء والإتفاقيات مع باقي العصبيات الأخرى وغير ذلك.

في هذا السياق يمكن للنعرات القبلية أن تطرح وتطرح خلالها موضوعات اللغة والثقافة وغيرها مما يدخل في بناء هوية القبيلة باعتبارها شكلا من أشكال التعبير عن الوجود وشكلا أيضا من اشكال التعبير عن رفض سلطة العصبية السائدة التي بدورها تقوم على تسييد ثقافتها، في سياق الصراع بين السائد والمسود في الدولة الكلاسيكية (دولة الملوك والإمبراطوريات) يمكن أن يكون للبحث في اللغة والثقافات المحلية حساسية مفرطة عكس الامر في سياق الدولة المدنية التي في بنيتها الإجتماعية لا تعتمد العصبية القبلية بل الصراع الطبقي وإن بدا في سياق بنيتها الزمنية (1) لا زالت تظهر بعض مقومات الدولة القبلية، (وهذا موضوع مهدي عامل اللبناني حين تطرق لما سماه بالزمن البنيوي) إلا أن السائد، ومن خلال الأسس التشريعية ذات الطابع الاجتماعي الراسمالي او حتى "الاشتراكي"، أقول هذا بتحفظ كبير كون المجتمعات ما قبل الرأسمالية في المغرب مثلا كانت تسود فيه الملكية الجماعية للأرض، وهو شكل اشتراكي بلغتنا الحالية، مشاعي بلغة ماركس ويظهر هذا من خلال ما نسميه في المغرب حتى الآن بأراضي السلالات الجماعية التي كانت سائدة حتى مع الفتح الإمبريالي الفرنسي للمغرب حيث فرنسا من خلال ممثليها بالمغرب هم من بدأوا في التمليك الفردي لهذ الأراضي (وهذا ليس سياق تحليلي).

لماذا الآن يطرح مشكل اللغات المحلية؟

لا يمكن مناقشة هذا الموضوع إلا في سياق التجاذبات بين تداخل هذه الأزمنة في الدولة الحديثة بين ما يشكل فيها إرث الدولة الكلاسيكية التي قامت على العصبية القبلية وإرث الدولة المستحدثة بفعل خارجي وهي الدولة المغربية الحالية التي تحاول جاهدة الإبقاء على شكل الإستثناء التاريخي: الوجود المكتسب بالإرث التارخي برغم ان العلاقات الرأسمالية وأنساقها تتجاوزها، ورغم كل تلك المقومات التشريعية التي تؤبد لها من خلال خلق أجواء للتكيف من قبيل "المملكة ضامن للتوحد"، ومن خلال صناعة ثقافة الثابت أو الثوابت وهي المؤشر على وجود ثقافة لها حساسية اتجاه الثقافة أو الثقافات المحلية:

إن ما يخيف الدولة المغربية في حساسيتها المطلقة اتجاه الثقافات المحلية هو هدم الأسس الأيديولوجية التي بنيت عليها في صقل عصبيتها القبلية الكلاسيكية وهي بوهم يمنعها من التحول إلى الدولة المدنية تعتقد أنها في صقل تراثها الأيديولوجي الذي قامت عليه ستموت تلقائيا، بينما في سياق آخر وهي تعي أن المدنية آتية لا ريب فيها تحاول ان تتكيف بشيء اسمه المملكة البرلمانية كشكل تكيفي مع المملكات الأوربية الراسمالية.

ليس لدي هنا طرح ثوري قد يزعزع الملكية بالمغرب وإن كان يبدو في العمق إلا أن مقومات التكييف هذه تحتاج من النظام الملكي بالمغرب إلى ثورة حقيقية نحو الدولة المدنية: الدولة التي حين نناقش فيها اللغة والثقافات المحلية لا تتزعزع ولا تثير حساسيات لأن هذه اللغة وهذه الثقافات المتبلورة منها هي حق مدني خارج عن سياق الدولة الكلاسيكية وفي سياق سياسات هذه الدولة في مجال التنميات المحلية لا تستقيم هذه السياسات دون استعمال الثقافات المحلية التي يمارسها أغلب الشعب: الأبحاث الأنتروبولجية مثلا.

وإذا اردنا صياغة فهم علمي لمنطقة معينة، هذا الفهم، يستوجب استنطاق الرموز والثقافات واللغات المحلية وليس تهميشها، بمعنى أن اللغة الامازيغية واللغة الدارجة المغربية عليها أن تدخل كرافض مهم للتعريف أو لمعرفة واقعنا دون استيراده من خارج. ينهج بعض الباحثين في الفلسفات الإغريقية إلى دراسة اللغة الإغريقية قصد فهم اعمق، في الحوار المتمدن يثير البعض أهمية دراسة الجيرمانية لفهم ماركس أو نيتشة أو هيجل أو غيرهم بشكل أعمق واعتقد جازما أن ما يصح في فهم فكر فلسفي معين أنتج بلغة معينة يصح أيضا في فهم ثقافة الشعوب المحلية من خلال دراسة لغتهم.

وشخصيا النهوض بالثقافات المحلية، امازيغية كانت او دارجة مغربية (وهي اللغة الحية بالمغرب) هو شكل من أشكال المعرفة العلمية ضد أساليب التزوير و"خنشلة" القيم والمعارف لشعب محلي معين (او قومية معينة، وهنا لا أقصد القومية الفاشية التي تسيد ثقافة معينة على ثقافات أخرى بل أقصد وجود قوم في بيئة معينة يشتركون فيما بين بعضهم في أمور كثيرة).

عندما يبحث شخص في أسماء الجبال والانهار والهضاب والسهول في منطقة معينة ويعتمد دلالاتها المحلية في التعريف بها، لا يعني ذلك أنه يناهض لغات أخرى سائدة ولا يعني أيضا أن له حساسية مفرطة اتجاه اللغات أو الثقافات الأخرى بل يقصد ببساطة تعريفها بشكل علمي مستمد من الثاقفات المحلية وقد أعطيت في مقال سابق، اعتمادا على الثقافة المحلية، معنى نهر مربيع (أم الربيع). برغم سهولة الاقتباس بين اللغة العربية والأمازيغية فإن الدلالات مختلفة ونحن نؤيد الدلالة الامازيغية لسبب بسيط: لا وجود للعرب في منطقة عيون "مربيع" (عيون نهرأم الربيع) لكي يكون اسم النهر عربي، والمسألة لا تعني إهانة للغة العربية ولا إلى ناطقيها بل هي الحقيقة في بحث انتروبولوجي .

قتل روح المعرفة هي ان يكون لدى المرء موقف حساس لبحث معين فقط لأنه اعتمد لغة ليست لغته وبكل صدق لا أتفق مع اسم بحيرة فيكتوريا الإفريقية لأن قردا أشقر من أوربا سماها كذلك بل أعتقد جازما ان لها اسما حقيقيا في اللغات الإفريقية المحلية أبلغ من اسم قردة شقراء من أوربا.

دراسة اللغات المحلية والنهوض بها تساعد في تنوع المعرفة وليست بالضرورة موقف مناهض للغات الاجنبية خصوصا حين نتكلم على دولة مدنية تعترف بحق التنوع الثقافي وليس فقط حق الأقليات.

الدارجة المغربية (المغاربية إن شئتم)

يعترف الكثير من العرب ممن زاروا المغرب صعوبة فهم اللغة المغربية على الرغم من أنها تنطق الكثير من

لغة العرب وفي بعض الاحيان تأخذ اس الدلالة العربية في كلمة معينة لكن منطق عجين الكلام مختلف وهذا راجع لهيمنة منطق اللغة الأمازيغية: نعم اقصد هذا: لكل لغة منطقها!

"أوثخ أبريذ" جملة تعني عربيا: مشيت كثيرا، مشيت مسافة طويلة، الترجمة الحرفية هي: ضربت الطريق (لا معنى هنا للكلام في العربية) وهذا يعني ان العربية المغربية اتخذت منطق اللغة الامازيغية الذي يعني مشيت (او تمشيت) مسافة طويلة.

في المقهى نقول:"اعطيني نص نص" هو كلام مجازي يختصر جملة : اعطني كأس بن نصفه حليب ونصفه بن.

"غانخلص اعليه": في العربية تعني سأقتله، سأتخلص منه، في الدارجة المغربية تعني: سأدفع الثمن بدله (يستعمل هذا كثيرا في علاقات الضيافة).

"هذا عندو السنطيحة" في قول آخر: هذا عندو الجّبهة (هنا لا ينطق اللام بل يشدد حرف الجيم) يعني أنه جسور ووقح، في العربية بالترجمة الحرفية يعني: هذا لديه جبهة، "مسنطح" وهي كلمة امازيغية درجت في العربية المغربية (مجبه) تعني انه لا يخجل من جسارته ووقاحته (في الشكل وباللغة العربية الذي يبرز جبهته دون خجل، لكن في المعنى الامازيغي وقح وجسور (داسر). ومعنى هذا أن العربية المغربية لا تفهم إلا في سياق المنطق الامازيغي.

"إسوف آللن" بالدارجة المغربية: نفّخ عينيه: بالعربية الفصحى تعني نفخ عينيه لكن معناها في السياق المغربي تعني بالغ في الجسور والوقاحة وتقال للذي يدافع بشراسة عن موقف خاطيء، هذا دون ان نتكلم عن كلمات أمازيغية في الدارجة المغاربية عربت مثل "بزاف" و"برشا" بتونس وتعني كثير أو جدا.

وبعبارة أخرى، لا تفهم الدارجة المغربية برغم مفرداتها العربية إلا في سياق منطق اللغة الأمازيغية ثم إن مسألة التعريب في سياق تاريخي أمازيغي بعيدا عن سياسة التعريب التي مارستها الدولة الملكية بوحي القومية البعثية العربية من خلال أحزاب الاشتراكية البعثية، كانت قبل موجة التعريب القومي البعثي، كانت موضة زمن ما بعد أو قبل الفرنسية، العربية كانت قبل الاستعمار الفرنسي لغة العلوم الدينية التي في سياق كونها لغة دينية وكون الامازيغ مسلمون كانت لغة يعتبر تدريسها مقدسا حتى دون فهمها ومنها ظاهرة حفظة القرآن بالمغرب: كم من فقيه في المغرب لا علم له بتفسير القرآن لكنه يحفظ كل سور القرآن أكثر من العرب أنفسهم.

يبقى هنا الإشارة إلى موضوع الصراع بين اللغة الفرنسية واللغة العربية الذي في مقال سابق ناقشته من خلال الصراع البورجوازي بين طبقة استفادت من ولائها للإستعمار الفرنسي وطبقة بورجوازية أخرى ساومت في عهد الإستقلال بولائها لفرنسا من خلال الوفاء لخصوصيتها العربية مع تمثلها لقيم التبعية وهذا نقاش آخر.

---

(1) وهذا موضوع مهدي عامل اللبناني حين تطرق لما سماه بالزمن البنيوي الذي يعني وجود أنماط تنتمي إلى ما قبل الراسمالية في علاقة تكييف مع العلاقات الراسمالية السائدة إلى جانب وجود إرهاصات المجتمع القادم من المستقبل ❑❑

الصهيونية والفاشية ومستقبل فلسطين

د. جلبير الأشقر
لبنان

❑ جاؤوا بعشرات الآلاف يوم سبت بعد سبت منذ بداية هذا العام الجديد، وقد بلغ حشدهم في تل أبيب أكثر من مئة ألف رجل وامرأة يوم السبت في 21 يناير/ كانون الثاني. تظاهرات قد يخفق القلب لها من حيث المبدأ: أفلا يصرخ المتظاهرون «لا للدكتاتورية» ويدعون إلى صيانة «الديمقراطية»؟ أوَليس هذا مطلب الشعوب البديهي كما بدا في موجتي الانتفاض في المنطقة العربية في عامي 2011 و2019، كما في شتى القارات والبلدان من أمريكا اللاتينية إلى أفريقيا جنوبي الصحراء، ومن إيران إلى الصين؟

لكن قلوبنا تعجز عن أن تخفق لتظاهرات تل أبيب، وذلك لسبب عظيم الشأن: لأنها تظاهرات «بيضاء وزرقاء» تتجلى في بحر من الأعلام الإسرائيلية يموج في ساحة تل أبيب الرئيسية. وقد أراد المتظاهرون بهذه المزايدة في التعبير عن تعلقهم بدولتهم أن يبيّنوا لحكومة أقصى اليمين التي يحتجّون عليها أنهم لا يقلّون عنها تمسكاً بأساس هذه الدولة الصهيوني، إن لم يكونوا أكثر إخلاصاً منها له.

فهم يرون في تولّي أقصى اليمين الفاشي خطراً على «الديمقراطية» الخاصة بهم، والتي يسميها عن حق بعضُ ناقديها «ديمقراطية عرقية» لكونها قائمة على التمييز العرقي ومحصورة بالتالي بصنف واحد من الناس، هم اليهود بالطبع في حالة إسرائيل التي لا تجد إحراجاً في الادعاء أنها «دولة يهودية وديمقراطية» وهي عبارة قائمة على تناقض صارخ. كما يرى المتظاهرون في حكومة أقصى اليمين خطراً على أمن دولتهم، إذ إن من شأنها مفاقمة انحطاط صورة إسرائيل الاصطناعية والمغشوشة بوصفها «الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط» وبالتالي توسيع الهوة التي باتت قائمة بين الدولة الصهيونية والرأي العام الديمقراطي العالمي بما يكتسي خطورة عظمى بالنسبة إلى دولة مطلَقة الارتهان بالدعم الخارجي منذ ولادتها.

هذا وقد نقل أحد التقارير الإعلامية عن تظاهرات تل أبيب خبر وجود لوح كرتوني وسط بحر الأعلام البيضاء والزرقاء، كُتب عليه «لا ديمقراطية مع الاحتلال». ونحن شاكرون لنوايا من رفع تلك اللوحة، لكنّ رسالتها مضلِّلة هي أيضاً إذ إن احتلال سنة 1967، وهو المقصود بالطبع، إن ذلك الاحتلال لا يعدو كونه استكمالاً لاحتلال آخر جرى قبله بعشرين عاماً وقد قامت الدولة الصهيونية على أساسه، مستولية على معظم أرض فلسطين وحارمة معظم سكانها الأصليين من الاستمرار بالعيش فوقها.

فالحقيقة هي أن لا ديمقراطية ممكنة مع بقاء الصهيونية بذاتها، وهي القائمة على الاحتلال بالفطرة كما على التمييز العرقي، وقد سعت منذ ولادتها وراء خلق دولة خاصة باليهود من خلال عملية استيطان في أحد البلدان الخاضعة للاستعمار، بدل أن يكون الأمر في إحدى مناطق الكثافة اليهودية في أوروبا. أو كما اقترح ديفيد بن غوريون نفسه على الجنرال دوايت أيزنهاور، عندما زاره في ألمانيا المحتلة سنة 1945 إثر هزيمة النازية، وقد كان أيزنهاور آنذاك الحاكم العسكري لمنطقة الاحتلال الأمريكي، اقترح عليه أن يقيم الأمريكيون دولة يهودية في ولاية بافاريا الألمانية تعويضاً عن الإبادة التي ألحقها النازيون باليهود. طبعاً، لم يقصد بن غوريون ذلك بديلاً عن مشروعه في فلسطين، لكنه اقتراحٌ كان أقرب إلى الحق بما لا يُقاس مما هو قيام الدولة الصهيونية في فلسطين!

فإن مصير الصهيونية الراهن إنما هو المصير الطبيعي المنسجم مع جوهرها الفطري، وكل من عوّل على «حل سلمي» مع دولتها إنما كان حالماً ساذجاً في أحسن الأحوال. أما أن تعلن «السلطة الوطنية» قطع تعاونها الأمني مع الاحتلال الصهيوني مثلما جرى قبل أيام (وهي ليست المرة الأولى التي يصدر مثل هذا الإعلان عن تلك الهيئة الفاقدة لأي سيادة) فإعلانها دلالة بحد ذاته على أنها هي أيضاً نقيض تسميتها، لا تمت بصلة إلى الوطنية، بل هي في حقيقة الأمر سلطة شبيهة بكافة السلطات التي أقامها المحتلون (الفاعل) في شتى أنحاء العالم للإيهام بأن شعب البلد المحتل (المفعول) راضٍ عن خضوعه للاحتلال.

وعليه، فلن ينبعث السلام من استشهاده في «وطن السلام» سوى على أنقاض الصهيونية، عندما يحصل الفلسطينيون على حقهم في العودة إلى أرض أسلافهم وتعود أرض فلسطين وطناً لجميع سكانها بحقوق متساوية وبلا تمييز عرقي، وهي المبادئ التي طالما نادت بها حركة التحرر الوطني الفلسطيني وخذلها مشروع أوسلو البائد. وهذا لا يمرّ عبر عودة البندول في الدولة الصهيونية من اليمين إلى اليسار في حدود طبيعتها الفطرية، بل بانتقاله من الفاشية التي وصل إليها إلى نقض الصهيونية، أي عندما يدرك قسم كبير من اليهود الإسرائيليين أن مآل الصهيونية الطبيعي هو الفاشية وأن رغبتهم في العيش بديمقراطية وسلام لن تتحقق سوى عندما يستعيد شعب فلسطين كافة حقوقه. وحتى ذلك الحين سيستمر هذا الشعب بالمقاومة العنيدة والبطلة، بكافة أشكال المقاومة من العسكري إلى السلمي الجماهيري مع التفاعل الضروري بين الشكلين.

بهذا المعنى فإن مجيء ائتلاف الفاشيين إلى الحكم في إسرائيل إنما هو مفيد للنضال الفلسطيني حتى ولو بدا هذا الكلام مدهشاً. ومن حسنات هذا المجيء الإضافية أنه أربك سائر المتعاونين العرب مع الاحتلال الصهيوني الذين باتوا يترددون في عقد اجتماعهم القادم في النقب للتنسيق الأمني مع دولته. لقد ربطوا مصيرهم بمصير الصهيونية وسوف يرتدّ الأمر عليهم لا محال، إذ إنها لثورة حتى النصر، كما ورد على شعار «حركة التحرير الوطني الفلسطيني» (فتح) وهو وعدٌ نسيه منذ أمد طويل قادتها الرسميون، لكن شعب فلسطين لم ولن ينساه، بل أعاد الجيل الجديد العمل به بصورة مستجدة ❑❑

معضلة خلط الدين بالدولة.. الأسباب والحلول

د. سامح عسكر
مصر

❑ لا شك أن العلاقة بين الدين والسياسة في الإسلام معقدة، ومنبع تعقيدها أن تاريخ المسلمين يغلب عليه الطابع السياسي منذ هجرة الرسول إلى المدينة، وتطور هذا الطابع بشكل سئ بعد وفاة النبي إلى احتراب أهلي بين الصحابة وآل البيت والتابعين وأنصارهم لمدة 100 عام تقريبا، وطوال هذه الفترة لم تنطفئ شهوة الحروب ولم تهدأ النفوس حتى إذا ظن البعض أنها هدأت نراها اشتعلت بشكل أكثر وحشية وبصورة أكثر قسوة..

بينما في المقابل نرى النص الديني المؤسس للإسلام وهو القرآن لم يحاكي هذا الطابع السياسي في أكثر من 95% من نصوصه تقريبا، فحسب دراسة نشرتها جريدة القبس الكويتية للكاتب "علي البغيلي" بتاريخ 5 ديسمبر 2020 أن موضوعات الأخلاق والمعاملات في القرآن لها أكثر من 1500 آية، وهذه نسبة تقترب من (رُبع القرآن) الذي يبلغ عدد آياته 6236 آية، وحسب دراسة نشرها موقع موضوع للكاتب "بسيم مسالمة" في يناير 2021 م أن هناك 1600 آية لقصص الأنبياء والصالحين وحوالي 2220 آية للعقائد والتوحيد والإيمان وصفات الله و 400 آية للأدعية والتعاويذ

فيكون مجموع هذه الآيات التي لم تتحدث في السياسة 1500+ 1600+ 400+ 2220 = 5720 آية، ولم يتضمن الإحصاء آيات الفقه وأحكام النكاح والطلاق والمواريث فقد عرضها الباحث بمجموع 730 آية مع آيات الجهاد والحرب، وبالتالي فنسبة 95% من القرآن ليست سياسية هذه نسبة قليلة لكني قدّرتها على هذا الرقم عملا بافتراض الأسوأ، ولو في تقديري أن هذه النسبة ربما تصل إلى 99% تقريبا فيما يثبت بما لا يدع مجالا للشك أن السياسة والحروب في القرن لا تحتل موقعا يُذكر وأن الذي يهيمن على رسالة الإسلام هي العقيدة بما يتضمنها من أحوال الغيب والإيمان القلبي ، والأخلاق بما يتضمنها من السلوك والفضيلة والحض المستمر على البناء والسلام والتسامح ، وهذه النتيجة بما ذهبت إليه تطرح أسئلة عميقة عن ما حدث بعد وفاة الرسول وكيف وصل الفقهاء إلى قدسية الجهاد والغزو واعتباره ذروة سنام الإسلام وأن خلط الدين بالسياسة والدولة فريضة إسلامية نشأ عليها الصحابة والتابعين..

الأزمة تكمن في اعتبار ما فعله الصحابة دليلا شرعيا وهذا ما يؤمن به الحنابلة والظاهرية بالخصوص كأكثر مذاهب المسلمين اعتدادا بما فعله الصحابة كدليل شرعي في الوصول، خلافا لمعظم فقهاء المسلمين الذين يرون فعل الصحابي (دليلا متوهما) وليس حقيقيا لأن الصحابة اختلفوا وتحاربوا فكان تقليدهم لا معنى له من حيث الأصل ، إذ لا يجوز تقليد المتناقضين لضياع أصل الدليل ومن هنا وصل معظم جمهور المسلمين أن فعل الصحابة دليلا متوهما وليس له أساس شرعي إلا إذ حصل هذا الفعل على شرط التواتر والإجماع فيكون مُلزِما كما قال الظاهرية، إذ اشترطوا حجية قول وفعل الصحابي إذا لم يوجد له مُخالف، لكن الأخبار والاجتهادات في كتب الأصول تذهب إلى استحالة تحقق هذا التواتر والإجماع، وكل الادعاءات بتحقق ذلك مرسلة يصعب إثباتها، ومن تلك الجزئية ثارت أزمة حديثة بين الجماعات وخصومهم من رجال الدين الموالين للحكام

فرجل الدين الموالي للحاكم يحتج بقول الجمهور على إبطال دليل الصحابة كما تقدم، بينما الجماعات تستدل بما وصل إليه الحنابلة والظاهريون بحجية فعل الصحابي في الشرع، ولتبسيط ذلك فالجماعات ترى مثلا ما فعله الخلفاء الأربعة في الغزو والفتوحات هو (فرض واجب) صدر من صحابة قلدوا الرسول وآمنوا بتطبيق تعاليمه، لكن رجال الدين الموالين للحكام يردون عليهم أن هذه الحروب كانت اجتهادات أملتها عليهم مصلحة المسلمين، وأن السياسة الشرعية تقتضي الحرب تحت لواء الدولة والأمير فإذا كان ذلك متحققا في القرن 7 م يجب البحث في تطبيقه الآن بالقرن 21 فإذا قضت مصلحة المسلمين الحرب كان بها وإذا لم تقتضي رُدّت، وفي هذه الجزئية تأثر الفقهاء بالثورة المقاصدية للإمامين الجويني والشاطبي في إقرار أولوية المقاصد والغايات على الوسائل والأحكام الحرفية، فحدثت ثورة عقلية بالفقه الإسلامي بفضل ما فعله الإمامين كانت لها أثرا بالغا في إحياء لغة العقل والقياس وهيمنتها على كتب الأصول، وهو ما تحقق في كثير من كتب الفقه للشافعية والمالكية والحنابلة في عصر متأخر..

كل هذا كوم وما حدث بالعصر الحديث كوم آخر، فعلاوة على أزمة خلط الدين بالسياسة في صدر الإسلام حدث خلط آخر منذ نهاية القرن 19 مشحونا هذه المرة بقيم وشعارات ثورية "كمكافحة الاستعمار ووحدة المسلمين" وأبرز نموذج لذلك هو ما فعله الشيخ "جمال الدين الأفغاني" المتوفي عام 1897 م، فالشيخ جمال كان فيلسوفا ثوريا يعمل على إعلاء لغة العقل في الفقه والعقيدة والأصول ويرى أن هذا الإعلاء مقدمة لأمرين في غاية الأهمية لديه وهما (وحدة المسلمين + مكافحة الاستعمار) وهذا المنهج ظل ملازما له طوال حياته حتى تأسيس مجلة العروة الوثقى مع الشيخ محمد عبده، وكان نفي الاحتلال الإنجليزي له إلى مومباي في الهند دليلا راسخا على قوة حجته عند أنصاره وأن مظلوميته تستحق أن تُخلد في كتب التاريخ كدليل على مشروعية خلط الدين بالسياسة ومحورية الدين في الإصلاح السياسي بالعموم

ومن هذه الخلفية نشأت جماعات الإسلام السياسي – سنة وشيعة - في عصر لاحق، حيث قدمت نفسها جميعا تحت نفس الشعارات، فجماعات كالإخوان وحماس والجهاد والقاعدة والتكفير والهجرة..إلخ من السنة و حزب الله والحوثي والحشد الشعبي من الشيعة، جميعهم رفعوا شعارا واحدا وهو (مقاومة الاستعمار ووحدة المسلمين) ولا يدركون جميعا أن هذا الخط هو من تأسيس الشيخ جمال الأفغاني ولو أن الإنصاف يتطلب منا القول أن ما وصلت إليه كافة هذه الجماعات وأخطاءها لا يتحمل وزرها الشيخ جمال، فإذا كان العصر الذي عاشه الأفغاني قوميا بامتياز وأنه كان صادقا في تطبيق هذه الشعارات رغم استحالة تحققها فالأمر يختلف عن شتى جماعات الإسلام السياسي التي كُوّنت لاحقا، فشعاراتها كاذبة في الغالب وعندما يقولون وحدة المسلمين فهم يقصدون أتباعهم ومن يوافقوهم، وعندما يقولون مكافحة الاستعمار فلا يحصرون هذا العمل ضد المستعمر وحده بل يبدأون في الغالب ضد كل معارض ومختلف بالرأي بدعوى الخيانة والعمالة للاستعمار..

وهذه معضلة أخلاقية كبيرة اخترقت وعي الجماعات منشأها (الضعف) فهم في وقت يقدمون أنفسهم أقوياء قادرين على التغيير هم في الواقع ضعفاء عاجزين عن بعد ولم تتقدم الأمة ولم يتوحد المسلمون ولا زالت دولهم تابعة للغرب والشرق ويصارعون بعضهم البعض على الصغائر والتفاهات، تخيل أن هذا الواقع المؤسف رغم صعود الوهابية والثورة الإيرانية منذ السبعينات، أي مجمل ما حدث من الإسلام السياسي طوال 50 عاما لم يُنتِج شئ بل ازداد الأمر سوءا بتفكك وحروب أهلية وفتن طائفية وقتل الملايين وتشريد عشرات الملايين ودول مدمرة بالكامل ، بينما لا زالت نفس الشعارات مرفوعة

والبرامج موجودة والخطاب الديني والسياسي لم يتغير، ولم يفكر أحد من زعماء الإسلاميين بعد على المراجعة، بل من راجع نفسه في السجون المصرية وخرج وظهر كشخصية عامة في الإعلام بعد ثورة يناير 2011 عاد إلى ماضيه القديم بتطرف وتكفير وقسوة ربما أكثر مما كان عليه قبل السجن..

أصل هذه المشكلة المعقدة كما قال المرحوم د نصر حامد أبو زيد:
أن الخطاب الديني الإسلامي يتماهى مع السلطة السياسية في زمنه، ومن تلك الجزئية يمكن استنتاج صعوبة فصل الخطاب الديني الإسلامي عن السياسة وحُكم الدول بمجرد الرغبة والحوار بين المجتهدين، لكن مطلوب تدخل السلطة فورا بإقرار هذا الفصل الجبري واعتبار هذا الخطاب الديني القديم صنيعة زمنه والأمر الفوري لكافة مؤسسات الدين بالاجتهاد من جديد والخروج بخطاب ديني مختلف وأدلة شرعية مختلفة، وهذا ما يحدث في السعودية الآن نوعا ما، فالأمير السعودي "محمد بن سلمان" أطلق مشروعا للتخلص من حجية ومشروعة أخبار الآحاد في السياسة والدماء والعقائد لأن مشكلة الخطاب الديني الذي أنتج الجماعات والإرهاب يعاني من هذه الأخبار الآحادية بكثرة ويصعب الفكاك منها بمجرد الحوار، بل يلزم ذلك تدخلا فوريا من الدولة والسلطات لتشجيع الاجتهاد وحث المتدبرين على تجديد الدين بشكل حقيقي

فعلى مدار 1000 عام لم ينجح فقهاء المسلمين بالخروج عن ما قالت به المذاهب الأربعة السنية أو الثلاثة الشيعية المتقدمة ، ولا زالت كتب "الأحكام السلطانية" للإمامين الماوردي تـ 450 هـ وأبي يعلي الفراء الحنبلي 458 هـ، وغياث الأمم للإمام الجويني تـ 478هـ هي التي تصنع الخطاب السياسي وحُكم الدول في الشريعة الإسلامية السنية إلى اليوم، برغم خروج هذه الكتب الثلاثة في وقت واحد بالقرن 5 هـ بناء على تحولات سياسية ودينية جذرية حدثت في هذا القرن باستصدار الوثيقة القادرية للخليفة العباسي القادر بالله سنة 408 هـ، فكان اجتهاد هؤلاء الفقهاء للخروج بهذه الكتب لتعزيز سلطة الخليفة وإقرار الواقع السياسي والديني الجديد الذي صدر كمجمع مسكوني إسلامي هو الذي يحكم عقلية المسلمين حتى الآن..

أضيف أن ما قاله نصر أبو زيد من أن الخطاب الديني الإسلامي يتماهى مع السلطة السياسية في زمنه هو رد حاسم على محاكمة اللادينيين للإسلام بوصفه دينا سياسيا إرهابيا كما يعتقدون، فهو لم يقل هذه الكلمة في سياق رده على اللادينيين، لكنه قالها للتوعية بصعوبة فصل الخطاب الديني الإسلامي عن السياسة والدولة بمجرد الاحتكام على أدلة قديمة، وكأنه يرسل إشارة صعبة يملأها الأسى والحُزن واليأس بأن تعايش المسلمين مع غيرهم وبعضهم مرهون بتجديد حقيقي للدين والخروج بمذاهب جديدة لترد على القديمة، وأنه آن الأوان أن يعمل المجتهدون والمفكرون والفلاسفة والأدباء والمثقفون في هذا المضمار، لذلك كنت – ولا زلت – من أشد المعترضين على خطاب الرئيس المصري للأزهر بتجديد الخطاب الديني دون ترجمة هذا الخطاب على شكل قوانين عملية تحد من سلطة رجل الدين على العامة، وأن هذا التكليف للأزهر بتجديد الدين لم يُراع مشكلة هذه المؤسسة بنيويا لقيامها على المذاهب القديمة وتقديسها للأئمة السابقين دون القدرة على الخروج عن ما فهمه الأجداد عملا بمبدأ "هذا ما وجدنا عليه آباءنا" الذي تكرر 10 مرات في القرآن على لسان الطغاة وخصوم الأنبياء..

كذلك فالواجب تحرير وفهم مرحلة المدينة مرة أخرى، بمعنى إعادة فهم وقراءة السور المدنية وآيات الحرب التي وردت بها من جديد، وما يتعلق في ذلك بإعادة فهم ما يسمى "الدولة الإسلامية" وهل يوجد هذا المصطلح في القرآن أم لا؟
وهل هو ثابت من ثوابت الدين أم لا؟
وهل تلك الدولة من أركان الدين أم من متغيرات المجتمع؟..فلو كانت من أركان الدين فلماذا لم تُذكر كأوامر ونواهٍ قاطعة ومحكمة في القرآن؟.
.ولو كانت من متغيرات المجتمع فأين الدليل على كونها حكومة سياسية فرضتها الظروف وليست خلافة إلهية مطلوب تحقيقها في كل زمان ومكان؟
وهل الحكومة السياسية جزء من الخلافة والإمامة أم هي مجرد اجتهاد بشري من الرسول حدث بمبايعة أهل المدينة من مهاجرين وأنصار؟

حتى في المذهب الشيعي فمعروف أن الأئمة الإثنى عشر لم يحكموا الدول سوى 5 سنوات فقط هي فترة الإمام علي بن أبي طالب، بينما عاش الأئمة الإثنى عشر حوالي 225 عام، أي ظل الشيعة 220 عاما دون إمام سياسي حاكم، فكيف تكون الإمامة أصلا في الدين بناءا على هذه الخمس سنوات ويجري إهمال 220 عام عاشوا فيها دون حاكم شيعي؟

كانت لي محاولة اجتهادية لفهم ذلك ضمّنتها في نهاية كتابي "الدين والعقل" وقد فضلت أن أختم بها الكتاب لأهميتها القصوى في إعادة فهم هذه الحقبة التاريخية المفصلية، وقد استعملت فيها منهجي المفضل بفلسفة التاريخ، واختصار هذه المحاولة:

(أن كل دين يمر بثلاثة مراحل:
الأولى: مرحلة النشأة وفيها تعقد الثوابت والأصول العامة للدين،
أما الثانية: فهي مرحلة الصراع..وفيها يجري الصراع على أحقية كل طرف بالحقيقة في زمن النشأة الأولى، وأما الثالثة: فهي مرحلة التقليد..وفيها يجري تقليد المتصارعين على النشأة باعتبارين، أنه لا يمكن وصول المقلدين لمعارف وحقائق زمن النشأة في المرحلة الأولى نظرا لخطية التاريخ الموجبة لانتقال النقطة (ج) إلى النقطة (أ) إلا المرور بالنقطة (ب) ولأن المتصارعين في المرحلة الثانية يحتكرون كل القيم النفسية والمعرفية عن زمن النشأة، ولا طاقة لغيرهم بمعرفة حقائق نشأة الدين سواهم.

ومن شدة منطقية هذه الرؤية ظهر ما عرف لاحقا بمصطلح "السلف الصالح" باعتبار المتصارعين هم الأقدر على فهم ورؤية نشأة الدين، لكن ظهور المصطلح لم يعترف بصراع هذه الفترة في حين عمل فقهاء المذاهب على طمس الحقائق التي حدثت فيها، بسلوك معاكس تم فيه تقديس كل أطراف الصراع حسب اتجاه ورؤية كل مذهب لسلفه المتصارع.

ولتلافي أخطاء الفقهاء وفهم الثلاثة مراحل بدقة أكثر تم اعتبار أن ما حدث في المرحلة الأولى – زمن النشأة - جزء منه طبيعة جوهرية للدين، والجزء الآخر تحديا يمثل فرعا متغيرا دنيويا لا يُقاس عليه، وعندي أن جوهر الإسلام كان في المرحلة المكية كحركة إصلاحية لمجتمع فاسد من جوانب عدة، ويدعم ذلك أن القرآن المكي اهتم في 90% منه على بناء النفس والعقل والمجتمع والدعوة للتسامح والرحمة، أما البقية فهي قصص تدعم نفس التوجه من ناحية أدبية واجتماعية، بينما المرحلة المدنية تعرضت (لأول تحدي) لدولة الرسول..وهو التحدي المقصود بالظرف المتغير الذي اعتبره الإرهابيون أصلا دينيا..بينما اعتبروا جوهر الدين فرعا يصحح لهم هذا الأصل.

فكل جهاد لديهم لكي يحققوا الرحمة والتسامح، وكل غزو لديهم ليحققوا عالمية الإسلام، بينما العقل والمنطق يقول العكس..أنه ولكي تحقق عالمية الإسلام ينبغي عليك بناء قدوة إنسانية لا بالحرب الداعية للبغض والكراهية، ولكي تحقق التسامح المرجو فليس بالجهاد الذي يبخس حقوق الآخرين ويسلبهم أعز ما يملكون من نفس ومال وعقيدة، والغريب أن القرآن يؤكد هذا التصحيح لوجهة نظر الإرهابيين والأصوليين عامة، أنه ما كان ينبغي لكم أن تؤسسوا الدين كجهاد..إنما كحركة عقلية وإصلاحية لمجتمع قاصر في ذاته ومقصر في سلوكه.) انتهى

أختم بأن الذي يساعد في حل معضلة خلط الدين بالسياسة والدولة عند المسلمين هو تنمية الجانب الأخلاقي والحض عليه كليا، وهذا لكي ينجح مطلوب أن نظل 30 عاما على الأقل نحارب كل دعوة لخلط الدين بالدولة وتقديمها كأولوية على حساب العمل الصالح والأخلاق، سوف يساعد ذلك في إعادة ترتيب الأولويات وإقناع العامة أن الإسلام دين أخلاق وفضائل كليا، وأن هذا الدين ثابت لا يتغير أبدا لكن السياسة تتغير وتتبدل..فمن ثم لا يمكن تقديم المتغير على الثابت منطقيا، وأرى أن هذا الخطاب المقدم للعامة سوف ينقذ الملايين منهم من جماعات الإسلام السياسي بخطاب ديني بسيط يحض على مكارم الأخلاق وإعادة بناء المجتمع المسلم من جديد بعد عقود مؤلمة ومحزنة من التدمير الممنهج.

فالأخلاق لا تتغير أبدا وهي مطلوبة في كل زمان ومكان، لكن الأنظمة السياسة والقرارات والخطط التنفيذية تختلف حسب الزمان والمكان، بالتالي فالسياسة بعيدة عن التعميم لكن الأخلاق معممة، وفي رأيي أن هذا المدخل مهم جدا حيث يؤدي في مرحلة لاحقة لإنتاج ما يسمى "أخلاقيات السياسة" ويضعها أصلا في الشريعة عند المؤمنين بها من المتشددين، فكل زمان لن يخلو من التشدد الديني ..هذه سنة الكون، وقصة تضمين أخلاقيات السياسة في الشريعة سوف يفتح ملفات هامة في الشريعة ستؤدي حتما لتجديد وتطوير رؤية المتشددين للدين والشريعة معا، ومن ذلك علاقتهم مع أهل الكتاب وغير المسلمين والمعارضين بالمجمل، فمركزية الأخلاق هنا سوف تطغى على الجانب الحرفي النصوصي الذي يجري تقديمه من المتشددين كأصل..

فضلا على إلزام الحاكم في شريعة المتشددين بأخلاقيات السياسة وهذا جزء مهم من التطور الذي سيحدث، بمعنى أن أخلاقيات السياسة منقسمة إلى ثلاثة فروع، الأول: الأخلاق العملية السياسية وهذه ملزمة لكافة المسلمين، الثاني: أخلاق المجتهد وهذه ملزمة لرجال الدين وطلاب العلم، الثالث: أخلاق المنصب وهذه سوف تكون ملزمة للحكام والمسئولين.
وفي تقديري أن وصول المتشددين إليها ومناقشتها والحوار بشأنها سوف يكون إنجازا فكريا غير مسبوق يخرجون فيه على التشدد الحرفي في كتب الأصول والسياسة الشرعية، وينقلبون فيها جذريا على كتب السياسة الدينية التي صاغت عقائدهم نحو الآخر والتي ظهرت في وقت واحد بالقرن 5 هـ بعد الوثيقة القادرية وجرى ذكرها منذ قليل ، ولولا أن الخطاب الديني تحول للأخلاق مدة 30 عاما ما حدث هذا الإنجاز الذي أراه ممكنا ومتاحا إذا أرادت الدولة ذلك...❑❑

سواق الأوتوبيس: الإنسان والضباع الضارية

دلور ميقري
سورية

❑ عاطف الطيب، مخرج فيلم "سواق الأوتوبيس"، إنتاج عام 1982، يُعد أحد أبرز صانعي الموجة الجديدة في السينما المصرية؛ وكان منهم محمد خان وخيري بشارة ورأفت الميهي وداود السيد وغالب شعث وعلي عبد الخالق. لقد تبنى هؤلاء الواقعية النقدية، فقدموا مجموعة من أفضل الأعمال السينمائية، وفي فترةٍ بدأ فيها الفن السابع في مصر يتدهور في السبعينيات، ومن ثم يتصحر مع نهاية عقد التسعينيات، وذلك بهيمنة ما يُدعى ب "أفلام المقاولات".

فيلم "سواق الأوتوبيس"، كان بالأساس فكرة محمد خان؛ وهوَ كاتب قصته. لكنه أعطى القصة لصديقه عاطف الطيب، بسبب انشغاله ذلك العام بإنجاز فيلم "نص أرنب". جدير بالذكر، أنه في هذا الفيلم الأخير، ظهرَ عاطف الطيب ممثلاً مع خيري بشارة. في بداية عقد الثمانينيات، أسس الطيب وخان "جماعة الصحبة"، مع السيناريست بشير الديك والمونتير ناديا شكري، وذلك بهدف إنتاج أفلام واقعية جيدة. غير أنهم لم يتمكنوا سوى من انتاج فيلم واحد، "الحريف" بطولة عادل إمام، الذي فشل تجارياً.

عاطف الطيب (1947- 1995)، تخرج من المعهد العالي للسينما ـ قسم الإخراج. عمل بعد تخرجه كمساعد مخرج مع مدحت باكير في عدد من الأفلام، من بينها "دعوة للحياة". خدمته الطويلة في الخدمة العسكرية الإلزامية، وخوضه في خلالها حربيّ الاستنزاف وأكتوبر، أثرت فيه بعمق وانعكست فيما بعد على بعض أعماله السينمائية؛ خصوصاً فيلم "البريء" من بطولة أحمد زكي، والذي كان نجمَ خمسة من أفلامه الأخرى.

كذلك عمل عاطف الطيب كمساعد مخرج لعدد من الأفلام العالمية، التي جرى تمثيلها في مصر، وكان منها فيلم "جريمة على النيل"، إنتاج عام 1978، عن قصة لأجاثا كريستي. بدأ عاطف الطيب عمله كمخرج بإنجاز فيلم "الغيرة القاتلة"، عام 1982، وكان تنويعاً معاصراً على مسرحية "عطيل" لشكسبير. في خلال حياته القصيرة، قدّم عاطف الطيب 21 فيلماً، دخل ثلاثة منها في قائمة أفضل مائة فيلم في تاريخ السينما المصرية، وكان منها "سواق الأوتوبيس"، الذي حل في المرتبة الثامنة.

بشير الديك (1944)، كاتب سيناريو "سواق الأوتوبيس"، تعاون مع المخرج عاطف الطيب في عدة أفلام. والمعروف أيضاً، أنه كون ثنائياً ناجحاً مع محمد خان وقدما خمسة أفلام. كذلك كتب سيناريو عدة مسلسلات، منها "الطوفان" للمخرج خيري بشارة.

2

أغنية فنان الشعب المصري، سيد درويش، التي تمجد "الصنايعية"، كانت موسيقاها ترافق شارة فيلم عاطف الطيب. قبل ذلك، يظهر مشهد لبطل الفيلم نور الشريف (بدَور حسن السائق)، وكان قد أفاق من النوم على صوت المنبه. كانت الساعة الرابعة صباحاً، حيث نهض أولاً كي يغطي طفله الصغير. عندما أرادت زوجته ميرفت (الفنانة ميرفت أمين) أن تحضر له الفطور، فإنه يقول لها أنه سيتناوله في الشغل. هذا المشهد الأول، له دلالة عن العلاقة الدافئة بين الزوجين، وذلك قبل أن تعصف بحياتهما قضية ورشة الخشب، التي يمتلكها والد حسن (الفنان عماد حمدي)؛ وهيَ عقدة حبكة الفيلم.

المشهد الثاني، نتابع فيه حسن أثناء عمله كسائق لحافلة عمومية (أوتوبيس). أزمة المواصلات، تتضح جلياً في هذا المشهد. في خلال سير الأوتوبيس، يقوم رجل عديم الضمير بنشل محفظة امرأة عاملة، فأخذت هذه تنتحب وتصرخ عن ضياع دخل شهر كامل. هذه الحادثة، ستتكرر في المشهد الأخير من الفيلم؛ وسنتكلم عنه في حينه.

الشقيقة الصغرى لحسن، تخبره عندما صعدت معه في الأوتوبيس أن والدهما وقع مريضاً بعدما تسلم إنذاراً من مصلحة الضرائب بدفع مستحقات عشر سنوات. يُفاجأ حسن بحجم المبلغ (عشرون ألف جنيه)، ما جعله يدوس على الفرامل. زوج شقيقته، عوني (الفنان حسن حسني)، يتبيّن أنه هوَ من كان يماطل في دفع الضرائب، بصفته مدير الورشة، وفي الوقت نفسه، كان يسرق الخشب ويبيعه لحسابه الخاص بدون علم والد حسن. هذا الشخص الجشع، يرفض دفعَ حتى قسم من المبلغ المطلوب للضرائب، وتؤيده زوجته في ذلك برغم علمها بما سيحل بوالدها لو لم يتم تأمين المبلغ في خلال شهر واحد.

شقيقتا حسن الكبيرتان، كانتا بنفس الأخلاق. يتجه أولاً بسيارة الأجرة، التي كان يعمل عليها مساءً، إلى مدينة بورسعيد، أين تقيم شقيقته سميحة (الفنانة نبيلة السيد). هناك يُبدي دهشته من منظر شقتها، التي حولها زوجها المدعو البرنس (الفنان وحيد سيف) إلى مخزن بضائع يتاجر بها. كان واضحاً أن حالتهم المادية ممتازة، لكنهم يقدمون الأعذار لكي لا يسهموا في مساعدة والد حسن. أما الشقيقة الكبرى فوزية (الفنانة علية عبد المنعم)، فإن زوجها الغني كان أكثر جشعاً. مع أنه مُدين بنجاح تجارته لمال حميه، إلا أنه يرفض مساعدته بدفع قسم من مبلغ الضرائب. في المقابل، يَعرض على حسن مشروع إزالة الورشة، لإشادة عمارة سكنية بمكانها. ثم يتحجج بموعد الصلاة، لينهي المناقشة، ويدعو زوجته للحاق به. هذه، تقول لشقيقها: "وأنت؟ ألا تريد أيضاً أن تصلي؟". ينظر حسن إليها ملياً، وما لبث أن غادر بيتهم.

النار، تنتقل هذه المرة إلى بيت حسن. ذلك جرى بعدما أخبر زوجته بنيته بيع سيارة الأجرة، لكي يُساعد في تخليص والده من مأزقه.

هنا تتدخل والدة امرأته (الفنانة زهرة العلا)، لتذكّرها بأن زوجها باع مصاغها في سبيل شراء السيارة للعمل عليها وتحسين أحوالهم المادية.

أساساً، كانت الأم تكره حسن منذ البداية، وفضّلت أن تتزوج ميرفت من ابن خالتها. هذا الأخير، كان قد عاد من الكويت وينوي العمل في الاستثمار. يقنع ميرفت بدراسة اللغة الإنكليزية في معهد خاص، بهدف إلحاقها بالعمل كسكرتيرة لصديق له يُدير أحد البنوك الخاصة. حياة أسرة حسن، بدأت إذاً تتقوّض جنباً لجنب مع الكارثة، التي ستحل بأهله.

ولكن هيَ ذي شقيقة أخرى لحسن، وفاء (الفنانة صفاء السبع)، ترجع أيضاً من إحدى الدول الخليجية، أين كان يعمل زوجها بالتدريس. الزوج، كان صديقاً حميماً لحسن من أيام خدمتهما في الجيش. كلا الزوجين، يتفقان على المساهمة بانتشال والد حسن من أزمته المالية؛ بأن يصرفا النظر عن شراء شقة. الصديقان، ما لبثا أن ذهبا إلى المحكمة كي يقابلا رفيقهما وكيل النيابة (الفنان محمد كامل). ثم التقوا برفيق رابع، فاتجهوا جميعاً بسيارة حسن إلى منطقة الأهرامات كي يستعيدوا ذكريات الحرب. هذا، كان مشهداً رمزياً باعتقادي؛ عن دوام حالة بؤس الشعب المصري منذ أيام الفراعنة.

مع مساهمة الأصدقاء الثلاثة بمبالغ من المال، فضلاً عن إمكانية بيع السيارة، يلوح الأمل في نفس حسن بأن أزمة والده في طريقها للحل. لكن ميرفت، تضع زوجها أمام اختيار الطلاق لو أنه باع السيارة. ويقع الطلاق فعلاً. المحامي، الذي استشاره حسن، أخبره أن مصلحة الضرائب وافقت على تقسيط المبلغ بشرط دفع نصفه في مدة محددة. يعرض الأمر على والده، ويقول هذا أنه سيبيع المنزل لسداد ذلك المبلغ. في الأثناء، كان ثمة رجل كهل (الفنان محمد شوقي) يتردد على والد حسن، عارضاً عليه مبلغ العشرين ألف جنيه ـ المطلوب لمصلحة الضرائب ـ كمهر لابنته الصغيرة. هذا الكهل، كان قد قضى نصف عمره في السجن بقضية تجارة المخدرات. لكن حسن كان قد وعد مساعده، الشاب الجامعي، بشقيقته الصغيرة، والتي كانت تحبه.

ما عتمَ والد حسن أن أصيبَ بنوبة قلبية، عندما علم بأن بناته الثلاث الكبيرات يعتزمن رفع دعوى قضائية ضده بسبب نيته بيع البيت، فما لبث أن توفيَ. مشهد اجتماع أولائي البنات وأزواجن الجشعين مع باقي أفراد الأسرة، فيما كان الأبُ مستلقٍ على الكرسي فاقداً الحياة ـ كان من أقوى مشاهد الفيلم: لقد أظهرَ حالة النفاق من خلال تمثيل الحزن، بينما البواطن سعيدة؛ لأن بيع المنزل، عقبَ وفاة الأب، سيعني أن ينال هؤلاء حصتهم من المال.

المشهد الأخير في الفيلم، يتكرر فيه حادثة نشل إحدى السيدات. النشال، يقفز من الأوتوبيس ويجري في الشارع. فيقوم حسن باللحاق به، ويأخذ بتوجيه اللكمات إليه، صارخاً مع كل لكمة: "يا أولاد الكلب!". هذا المشهد، يذكّر المرء بخاتمة فيلم المخرج التركي الكردي، يلماز غوني، "القطيع"، المنتج في سبعينيات القرن الماضي، عندما قام البطل بخنق أحد الرجال في السوق لأنه سخرَ من حزنه على امرأته المتوفية للتو: كلا البطلين، كان يعبّر عن رفضه للوضع الإجتماعي السائد، وذلك من خلال إفراغ غضبه بأحد ضحايا هذا الواقع❑❑

الضَّوءُ الأحمَر

ريتا عودة
فلسطين

❑ - "احْذَري!"
صرخَ الشُّرطيُّ، ثمَّ ابتسمَ ابتسامةً مدروسَة، وتابعَ:
- "لا يمكنُكِ اجتيازَ الشّارع والضَوء أحمَر!"

دهِشْتُ! كيف استطاعَ أنْ يبتسِمَ ولو مرّة؟! ترَاهُ مَلَّ مُلاحَقتِي بغراماتِهِ الماليَّة، أم أنَّهُ أدركَ أنّي لا أملكُ ثمنَهَا، أم أنَّه اقتنعَ أخيرًا أنَّ الضَّوْءَ الأحمرَ لَيْسَ إلاّ قَانونه هوَ؟
- حسنًا.

هتفتُ وأنا أخفي راية النّصْر خلفَ شفتَيَّ. أخذتُ أستعدُّ لاجتياز الشّارع ثانيةً، لكنّهُ لمْ يتحرَكْ. لمْ يَستعدّ للّحَاق بي. أصبحَ يعرفُنِي جيّدًا. يعرفُ أنّي أرفُضُ أنْ أطيعَ أوامِرَهُ ويظنُّ ذلكَ لكونِهِ رَجُلاً. لكي أستَفِزَّ غضَبَهُ قررْتُ ألاّ أعبُرَ الشّارع. قرّرتُ أنْ أصلِبَ نظراتِهِ فوقَ خُطواتي؛ ستعبُر. لنْ تعبُر!

بدأتُ أبحثُ عنْ أيّ شيء يثيرُ فضولي. لاحقنِي صوتُ امْرَأةٍ تؤكدُّ على الهاتف: "لا تَتَأخَّر!"

ارتفعَ صوتُ شابٍّ منْ خلفي: "تفضّلي". تردَّدْتُ، فهتفَ: "ألا تريدينَ استعمالَهُ؟". تملّكتني نوبةُ ارتباك. أُريدُ أن أتحدثَ إلى أيّ كانَ، لكنْ مَنْ يسمع؟ فجأة، اقتنصَتِ الفرحةُ غاباتِ أفكاري: لماذا لا أطلبُ أيّ أرقام فأتحدثُ إلى أيّ كانَ؟ أجبتُ بكبرياء: "نعمْ سأتحدثُ فهلْ تمانع؟".

لمْ يكترِثْ لقولِ "لا" أو حتَّى "نعم". فرَاغ. فرَاغ. مجرّدُ فرَاغ يفصِلُ بينَ البشر. مجرّدُ مسافات لا يُمكنُ لإنسَان اجتيازها. ابتعدَ ربما ليبحثَ عنْ هاتفٍ آخَر فِي مكان آخر. لا يمكنهُ الانتظار ولو لحظة. قلَق. أرَق. إرهاق يأكلُ وقتَهُ، بل وقتَ جميع شبابنا. لماذا؟ تساءلتُ وأنا أخْنِق غصّةَ ألَم في حلقي. ألأنَّ أحلامهُم مكبوتة؟

نظرَ إلى الضّوءِ بإمعانٍ، ربما ليتأكدَ أنَّه ليسَ أحمرَ. ثمَّ اجتازَ الشّارع كالبَرْق، وتركني وحدي أبحثُ عن شَيء يثيرُ فضولي. قبضْتُ على سماعَةِ الهاتفِ، وأخذتْ أصابعي النّحيلة تتحَرّكُ بنهَم فوقَ الأرْقام. زقزقَ قلبي. ارتفعَ صوتُ رجُلٍ (ما) يهمسُ بِتكاسلٍ:
"ألووو". بَدَا لي من رائحةِ عَرَقِهِ عَبْرَ الهاتفِ أنَّهُ أفاقَ لتوّهِ من حُلم.
- مَنْ؟
تساءلتُ بلهفة، فصرخَ بعصبيّة:
- مَنْ يطلبُ رقمًا يُعَرّفُ نفسَهُ لا العَكْس.
- نعَم، ولكن بإمكاني تلفيق أيّ اسم لكَ. هذا ليسَ جوهرَ الموضُوع.
قالَ وهوَ يتثاءَبُ:
- مَا هوَ الموضوع إذًا؟ أنتِ تُعاكِسينَنِي!
- أنا لا أعرفُكَ.
- إذًا، عُذْرًا. سأقطَعُ المكالمة.
صرختُ مُتوسّلةً:
- لا. أرجوك.

صمتُهُ المُفاجئ أيقظَ عاصفةً مَا داخِلَ آباري فبدَأتُ أرَدّدُ بتوَسُل:
- ألو. ألو.
- حَسَنًا. حَسَنًا. قولِي ما عندَكِ بسرعة.

همسَ متأفّفًا ورائحة عَرَقِهِ تتملّكُنِي منْ جديد. أدركتُ أنّهُ ينتظرُ، ففرحْتُ لأنّي سأتمكنُ أخيرًا منَ التّعْبير عن مخَاوفي. أعلنتُ بحُرْقة:
- إنّهُ المَلَل.
- ماذا؟
صرخَ مذهولاً، فَنُحتُ:
- المَلَلُ عدُوّي.

انتظرْتُ صوتَهُ يُضيءُ عتمةَ حواسّي. انتظرْتُ رائحةَ عَرَقِهِ تُخَدّرُ صَمْتِي. انتظرْتُ صَرْخَةً كصرخاتِ الشّرطيّ تشْتُمُنِي. انتظرْتُ. لكنّ الصَّمْتَ اغتصبَ شفتيهِ. بدا لي أنّهُ نهضَ عن السّرير، فقد وصلني صوتُ ضجيجٍ خفيف. أخيرًا قالَ:
- اشتغلي.
أحسستُ أنّ الجُرْحَ قد عثر على الخنجر الّذي طعنهُ فأجبتُ:
- لا أجدُ شُغْلاً.
- لمَ؟
- بسَبَب...
ترددْتُ، ثمّ ألقيتُ حجرَ النّرد على رقعةِ الألمِ:
- البَطَالَة.
- البطالة؟
- نعَم. أبحثُ عن عملٍ دونَ جدوى.

تمتمتُ بإعياء:
- هُنالكَ رجالٌ كالصّخور يستيقظون كالطّيور معَ الفَجر لِيسافرُوا إلى مناطِقَ عَمَل مُجَاورَة، فيَجدُون أنْفُسَهُم مطرودينَ من أعمالهم بعدَ ضياعِ شبابهم، فتضيع كرامتهم بصمتٍ. لا يبكون ولا يصرخون، بل يصرخُ الجوعُ في أحشاءِ أطفالهم، فماذا بإمكاني أنا أنْ أفعل؟
تنهدَ ذلكَ الرّجُل. فكرَ طويلاً، ثمّ تمتمَ:
- استخدمي شهاداتكِ لتوفير فرصة عَمَل.
- لا أملكُ شهادة.
- لماذا؟

تساءلَ بلهفة، فقلتُ بمرارَة:
- مَنْ يدفَع لِي ثمنَ الأقساطِ الجامعيّة؟ أتظُنُّ أنَّ العِلْمَ لنا؟ نحنُ (في نظرِهِم) دونَ مستوَى الالتحاق بالجامعات. نحنُ عُمّالُ نظافة لا أكثر. الجامعاتُ لأبنائهم هم، وحتى لو حاولنا الالتحاق بجامعاتهم، سيضعون ألف عثرة في طريقنا.
خفت صوتي وأنا أعلن:
- كمْ تمنيتُ لو ألتحقَ بإحداها.
- إذًا تزوَّجِي كهلاً ثريًّا كغيرك من الفتيات.
- مستحيل أن أكون تحفةً في قبضةِ الّذي يدفعُ أكثر.
- إذًا؟

همستُ بإرهاق:
- لمْ يَبْقَ إلاّ المَلَل. لمْ تَبْقَ إلاّ حكايات الجَدّات عن العَريسِ المُنْتَظَر. لمْ تَبْقَ إلاّ أحلام الشُّيوخ ببطولةِ الأجداد. لمْ تَبْقَ إلاّ صرخَات النِّساءِ على أطفالهنّ حين تنتهي مُهمَّةُ تنظيف المنزل من خيوطِ العنَاكِب، فيطول انتظار عودة الزوج، ويسُود المَلَلُ حين لا يجدْنَ لآمالِهِنّ منفذًا إلاّ الأحلام المستحيلة، أمّا أنا فأريدُ أنْ أحيا بكرامة؛ أن أشعر بقيمة نفسي، بأنّي كِيَان قادرة علَى الأخذِ والعَطاء والمشاركة، لكنْ، حتّى العَطاء هنا مُقَيَّد.

لففتُ وجعي بأوراقِ الصمت، فأعلنَ الرّجُلُ بأسَى:
- آسِف لأنّي لا أملكُ لكِ حَلاً، فكُلّنا نجتمر في المِرجل ذاته.
بلهفة سألتهُ: ماذا تَعْمَلُ؟
- أنَا؟
- نعَم أنتَ.

كرضيع فقدَ ثديَي أُمّه ناحَ: حارس ليلي.
خِلتهُ يمسحُ دمعةً بلّلتْ وجنتهُ. تابعَ بصرامة:
- يجب أن أعودَ إلى النّوم كي لا أُطْرَدَ منَ العملِ ليلاً. إلى لقاء.

بدأ فورًا نقيقُ الهاتف يعلنُ عن انقطاع المكالمة.ألحّت عليّ هواجسي بسؤال: "ترَى، هل عانى هذا الرّجُل يومًا من ملاحقة الشّرطي؟ هل مَلّ هو، أيضًا، صرخاته وشتائمهُ ولعنتهُ أنّنا أجساد متحرّكة، دُمَى؟"

سقطتْ سمّاعةُ الهاتف من يدي. سقطتْ خيبةٌ ما داخل آبار أعماقي. هجرتْ أنينَ الهاتف، وأخذتْ بنزقٍ أبحثُ عن ذلك الشّرطي، عن عينيهِ الزّرقاوَين وشعره الأشقر. ألا يعاني ذلك الشّرطي هو، أيضًا، من الملل؟ ألا يخشى هو، أيضًا، التهديد بالطّرد من العمل؟ ألا يخاف شبحَ الجوع والبطالة؟ ألا يملّ تسجيلَ الغرامات للمارّة؟ ألا يملّ ملاحقة عيونهم وترقبّ خطواتهم؟ ثمّ ما هو راتب هذا الشّرطي؟ أيكفيه أن يتنفس، ويَحلُم، ويُعلنُ بكبرياءٍ أنّه حيٌّ؟ ألا يُورّقُ ساعاتِهِ الخوفُ من المجهول، ومِن فجر لا يجد فيه ما يُخْمِدُ فيه فحيحَ الجوع في أحشاء أطفاله؟ ألا يخاف غدر الزمان والمكان؟ أم أنَّهُ لا يُطْرَد لأنَّه هنا، في حيفا، ممنوع ترْك خطوات المسحوقين دون مُراقبة، ودون حصار الغَرَامات الملعونة، وسياطِ الأسياد؟

وجدتهُ عَلَى الرّصيفِ الآخَر؛ كانَ يتلوّى كقطٍّ جائعٍ. ركضتُ نحوه. قد آن الأوان للغزالة أن تباغتَ الأسدَ.

عندما تأكدتُ أنّهُ يراني، أخذتُ أجتاز الشارع خطوة. خطوة. قوانينهُ لا تروق لي ليسجّل لي غرامةً أخرى، ليُسجل أنّي ثائرة على ظِلّي. يكفيني فخرًا أن أكون قد تمكنتُ من التعبير عن موقفٍ ما ولو مرَّة منذ أدركتُ كوني أحيا في وطن مُغتصَب.

أخذَ صوتُهُ يطاردني، وخطواتي تعلنُ ثورتها على قيوده:
ممنوعٌ اجتياز الشّارع والضوء أحمر!❑❑

المخبرون

مختار سعد شحاته
مصر

❑ المخبرون في كل مكان، ينتشرون ويتوغلون مثل المبيد الحشري في الإعلانات، يؤمون الناس في الصلاة، وفي الصالات يرفعون كأس براندي، وبيرة ستلا السخيفة، ويشربون الشاي بالحليب أحيانًا كموظفي السجلات المدنية في الصباح...

المخبرون لا ينامون، خاشعون في إقامة الليل وسوق حجج الاغتيال المعنوي للرافضين، ومنشغلون بالوِرد الأمني تهليلاً وتسبيحًا بحمد الإله الكبير...

المخبرون في الطرقات، وفي الوقفات، وفي المعارض الفنية، وفي المسلسلات المنزلية، وفي الأجهزة الإلكترونية، وفي الشات، وفي المكاتب والمراسلات، وصناديق البريد، مجانيون كالتعليم للفقراء، كالماء والهواء، حقٌّ للمواطنين اللاجئين في القرى البعيدة، والمدن المنسية على الحدود...

المخبرون يعرفون الله حق المعرفة، يصلون في الجماعات، ويؤمنون على الدعاء، وفي الطوابير الطويلة يصرخون، ويعلنون أن عدالة التوزيع كافية للجميع، وأن مباديء الثورة المكسيكية أمل كبير، وأن رصاصة الرحمة التي تطلقها السلطاتُ المركزية عطفٌ الإله على الجماهير الغفيرة...

المخبرون في مدرجات الملاعب يرفعون رايات النصر، ويحتفلون كل عام بعيد الجلوس المجيد، ويهتفون للثورة المكسيكية أن تحيا ثلاثًا، ويشجبون استياء المساجين من القهر المبين، ويرجون رفع الالتماس بالخلاص من أهل الشر، وأعداء الوطن...

المخبرون يكتبون القصائد، ويحصدون الجوائز، ويسردون الروايات العميقة، ويفتحون دربًا تجريبيًا في الكتابة عن فنّ جديد، يحكون في أوله عن ارتباك المشاعر حين قامت الثورة المكسيكية في الشتاء، ويرسمون الخط الدرامي بلا احتراف، وينهون حياة البطل بالموت الحميد، كسنةٍ أبدية للبطولات...
المخبرون رؤساء تحرير المجلات الإباحية، كُتّاب عواميد الرأي الاستثنائية في الطبعة الأولى، ويجيبون على بريد قراء الأسرى في الطبعة المسائية، ويمنحون الجميع من حكمتهم التي راكموها على مرّ السنين...

المخبرون أبناء الثورة المكسيكية،
المخبرون الطامحون في الجاه،
المخبرون المؤمنون الذين تواصوا في الانتخابات برمز الثورة المكسيكية، ورقصوا على باب اللجان بالحق الممنوح لهم على طول الزمان...

المخبرون جند الله في الأرض، وخير أجناد الثورة المكسيكية في هذا الزمان...

المخبرون نجوم الإعلانات عن كومباوندات الثورة المكسيكية، مقدمو التوك شو الدعائية، ولسان الجميع من أبناء الثورة المكسيكية المجيدة الذين دعموا من فوق "الكَنب"...

المخبرون أبناء الإله، لا خوف عليهم، ولا هم يحزنون...❑❑

في وداع عصفور

فاطمة الحصي
مصر

❑ دخلتُ في نوبة بكاءٍ هيستيرية بكل ما في قلبي من قوة، حين لمحت جسده الصغير الضعيف في زاوية صغيرة بمنزلي، زاوية لا هي بلكونة ولا هي شُباك.

كان نائما على جنبه، وجفلت، ما كان هذا اتفاقنا يا صغير...

نعم أضع الحبوب والماء يومياً، لا أعرفك ولا أعرف زملاءك، تأتون كل صباح فأسعد باستضافتكم وأفرح لرفرفة أجنحتكم، أتابع المشاغب منكم، يشدني إهتمام إحدى الأمهات بوليدها تغمس في حلقه الحبوب ويتابع ملاحقتها منتظرا المزيد...

لا تجفل العصافير من مشاركة اليمامات طعامها ولا تهتز لهم ريشه إذا قفزت إحدى اليمامات إلى بداخل صينية الحبوب...

يخبرني ابني بفرح رغم دموعي المنسابة: أليس رائعا أن يختار العصفور منزلنا لكي يموت به لا بد من أن لذلك دلالة عظيمة!

أهمس بحزنٍ لكني أردتُ أن يختار منزلنا ليحيا لا ليموت .

قررتُ بَعْد كل هذا الانفجار من الدموع والحزن أن أنقله وأدفنه بحديقة جوار منزلي، تجنبت أن المسه بيدي استخدمت كيسا بلاستيكيا لذلك ،لكن الدموع غالبتني مرة أخرى على الرغم من تجنبي رؤيته بالعين، شعرتُ بصورته وهو ملقى على جنبه فاقد الحركة تماما محفورة بقلبي.

كنت شاهدته قبل اليوم، وشككت أنه مريض، ولم يكن إلى جواره من يعتني به كما تعودت أن أرى في عالم العصافير، و حين شاهدته يأكل الحبوب تفاءلتُ خيرا وتوهمت أنه معافى، لكنه اليوم اختار منزلي ليموت به.

ذكرني موقف ضيفي العصفور بكلماتِ رقيقه قرأتها ذات مره في قصيدة نثرية للشاعر المصري إيهاب الراقد يقول فيها:
* *
سأخبركم أنا عن أنفاسه الأخيرة:

أصبح العصفور يمتنع عن العزف كلما أنتبه أني أراقبه، تغير، أهمل الفُتات التي أقضي فيها ما لا يقلّ عن عشرة أفكار كي أفرشها له على السور، حتّى إناء الماء، كل ليلة أراه لا ينقص سوى من استخدام الشمس له أثناء وضعها للمساحيق، وربما يمر عليه ثلّة من البعوض ، بجواكت جلديّة يبولون.

وآخر الأمر، رأيت عصفوري مُلْقَى- بكامل جسده- في الإناء، الريش منثورٌ، رأسه للأسفل، وسقط منقاره في القاع.❑❑

وجه الخير
في الدائرة المربعة

كمال جمال بك
سورية

❑ بيدين ناضجتين كرغيف التَّنور، هزَّت أمُّه بدفء عَبّارةَ الخشب، سريرَ وجوده وحلمه ولهوه. ومع تبادل الابتسامات بينهما حيلةً للنوم، ورغبةً بالمزيد من الدعابة، دندنت له من سهول قلبها ألوانا من أغنيات المهد، بصوتٍ نهريّ عميق ما مال إلى ضفّة دون أخرى، ولا روى بستانا دون آخر. وسال عسله دائما بنغم شجي رخيم ممدود ليداعب سمعه ويلامس أعصابه كي ينام بهدوء وراحة!

من أين تأتي الراحة، وشوالات دقيق موروث وادي الفرات مثقلة ببكائيات، وحكم وأمثال شعبية صفوة معاناة مع الحياة وقسوة باديتها، ورباعيات شعرية و موّالات وبعض من العتابة- والأبوذية- والدارمي- والزهيري؟

من أين تأتي الغمامات بأجنحة الفرح إن لم تكن من قُطـَبٍ في أطراف الأعين تخبئ سرّ ابتساماتهما؟ ومن أين تأتي ضحكةُ بيضةٍ مسلوقةٍ تقدمها زهرة الطيّبة لربيعه المنفصل عنه فيُسرّ بالقول: إنها من أخيك؟ ربيعه القادم لزيارته على دراجة برتقالية بثلاث عجلات، الولد الكبير بثلاثة أعوام، والمغامر بالزيارات لرؤية أخيه ابن العامين، وكلما انتهت زيارة بعقوبة جسدية في بيت الجد للأب قال ضاحكا: المهم أنني شفت أخي. في العائلتين كانا أول بشارتين، وفي الحارة ومع الأصدقاء وفي المدرسة شكّلا رفقة توأمين وربيعين في التكتم على أسرار بعضهما وفي اللعب ومشاغبات الطفولة والصبا، وفي اجتياز البساتين إلى الفرات. موفور الحظ أخوه في السباحة وصيد الطيور وصيد السمك، مقابل قلب مغمض العينين ويد مرتجفة تصوب بارودة الضغط إلى هدف يطير قبل الإطلاق، ورئتين امتلأتا ست مرات بالموت غرقا من دون أن يمتلك مهارة الوصول إلى أعماق بعيدة.

********** **********

في سلّة الحب لكلّ ثمرة طعم ورائحة ولون. ومن جني تربةٍ حُسينية في ضفاف الفرات هدهدتْ له أُمه بلطف، وهي ترسله بعبّارته إلى الأمام، وتشدّه إليها بأمان:

"ما دام گهوة وتتن كل الأمور تهون
وآني نخيتك علي يا الراگب الميمون"

ومنذ طفولته وحتى مرحلة متقدمة من شبابه لم تدفعه هذه المقاطع ولا الأغاني المتنوعة للتساؤل حول دائرة الديانات والمذاهب والطوائف، فالجامع جوار الكنيسة بينهما مقهى شعبي للجميع، والفروقات بدت ليست ملغاة فحسب، بل إن الوجدان الشعبي والتكوين التراثي امتزجا في بنية اجتماعية واحدة.

كما لو أن الأمر الصالة الدائرية المفتوحة داخل المشفى، والمفروشة بطاولات مربعة، لكل طاولة فيها خصوصيتها. تحت أستار العقل بأوامر الغيب تتم تغطية الفساد وتدعم أركان سلطة الطغيان، وعلى سطح مستو يجمع النزلاء الفاقدون أهليتهم على تناول الطعام في أوقاته المنتظمة، وربما يختلفون قليلا أو كثيرا في انتقاء وجباتهم. إلا أنهم لا يتقاتلون على حصتهم ولا على الله، ولا يبحثون عن أدلة وجوده لا في الأرض ولا في السماء. ولا تسجن أحاديثهم أقفال انتماءات ضيقة من العائلة إلى الوطن مرورا بكل ما يشكل حدودا لردع أي تمرد أو نزعة عقلانية.

********** **********

إلى حديقة التدخين ذهب باتري والغريب، وتبادلا التقاط الصور لكل منهما عند شجرة مضاءة في منتصفها، مع رقص وغناء للعام الجديد. غادر باتري معتذرا لانشغاله بأوراقه، وبعد عبور سحابة من النجوم عاد الغريب إلى الغرفة رقم 2 غرفة التحرير الإذاعي. وسريعا لحق به صديقه لزيارته. قال الغريب: " غنيت لكم، لك، لماري، لشعبنا، للناس الطيبين، رقصت في الحديقة وكنتم معي، فردت ذراعي وغنيت:

فلاي.. فلاي
فلاي إن ذا سكاي
يطير .. يطير
يطير في السماء
حلق.. حلق
حلق يا شهيد
حلق.. حلق
حلق في الفضاء

بين سكرة كلام على غبار عشرات السنين، وبين ما حمَّلت به أمُّهُ الريح من وصايا المطر تتهاطل الهدهودة من دون لطم لتبرد الأنفاس:

"يا علي ما زارتك عليا بهالليل
ودموع عليا يا علي
شبه المطر بالسيل
ويلي لا گالت الميمة عليكم ويلي
الويل لعدانا
ولليحگي بگفانا ورانا بشين"❑❑

نارٌ موقدةٌ

مهند جاسم الشباني
العراق

❑ ما بين الهدوء
واللاهدوء
ثمة فجوة كبيرة بيننا الان
الصراخ
لا يشبه ان تتحدث بصوت هادئ
لذلك سأكتفي بالصمت
واتامل احوالي معك
وها هي الورود ترتوي بالمطر
لا بصوت الرعد
لا توجد حدود فاصلة في اعذارك
انت مازلت مبهمة
لم نكن يوما معا...
حتى في أحلامي
كنت أراك بعيدة جدا
ويداي قصيرتان
لا تطولك
وصوتي تجمد في فمي
صدى صوتك
الراكد في اذني
اضعته في زحمة الفوضى
فلم استطع ان اميز
صوتك من غيره
اعترف اني
قد احببتك فيما مضى
ولم نكن نلتقي
الا على اطلال الموسيقى
وعلى اصوات البلابل
كنت أغرق في السعادة
وانا انظر في عينيك المارقتين
واسرق منك قبلات حارقة
وانت تتعرين امام مرآة ماجنة
قبل ان تتحول قصتنا الى مواجع
سأهجرك كعابر سبيل
يطوف البلدان كالدراويش
سأحرق نفسي حيا
لكي اطفى رغبتي فيك ...❑❑

نصيحة أمي

أمان السيد
مصر

❑ قدماي المنهكتان
لم ترتاحا يوما من السفر
أحذية كثيرة في خزانتي الخشبية..

اخلعي حذاء،
البسي حذاء
نصيحة أمي
وجدتي،
وأم جدتي،
و....
هل الحذاء رجل؟
وصمتُ..
هما ترشدانني إلى الحب الذي إليه،
أستكين
وتنسيان أن المتعبين
لا يهتدون يوما إلى الحذاء المريح..

وددت أن أسأل معلمي ذا الشعر الأشقر،
والوجه المنمش
هل النساء عندكم يغيرن أحذية كثيرة،
أهنّ متعبات مثلي،
مثل أمي،
مثل جدتي
مثل نساء وطني،
وأكتفي بتمتمة تفصح عن حذاء عندما
تلقيه قدمي،
يشكل صهوة لحصان..
يضحك معلمي ويهز برأسه
يقول:
هو السفر.. إشارة إلى السفر،
فأفهم أن النساء كلهن سواء
أقدامهن لا تعرف الراحة،
وخزاناتهن المشغولة من خشب الجوز
تنوح فيها الأحذية..

وراء صدر يشعّ لجمري،
لهثت ولكن،
يا لقدري الذي لا يجذب
إلا الصدور المهترئة..

يكفيني مني أن تبهرني الأحذية اللامعة
في الفترينات،
وأحمل وجهي
ونتابع السفر❑❑

لحية حسب الموضة

لويس ياقو
العراق

❑ قلت مداعباً لصديق بلحية عصرية حسب الموضة:
هل زادت اللحية من عدد المعجبين؟
فأجاب: لن تتخيل كم زادت من عددهم!
قلت: أتتسائل لم لا يرونك بوضوح دونها؟
فقال: تذكرني هذه اللحية كل يوم بأن الناس لا ترغب برؤية الأشياء عارية كما هي.
انهم يلاحظون ويرون الأمور تحت أي غطاء كان عدا على حقيقتها!❑❑

نحن

نوال شق
سورية

❑ نحن من البلاد التي تموت بلا عزاء.
العمر الذي يتسرب من بين الأصابع.
الولاعة التي تضيع بلا سبب.
التبغ الذي لم يعد يكفي
لإحراق المزيد من الأمنيات المكدسة في الصدر.
الأغاني التي لم تعد تشبع شهوة القلب.
الأرض التي لا أرض فيها للحنين على أحد.
الخيبات التي لم يعد يتسع لها المزيد من الصبر.
الأصدقاء الذين يرحلون قبل وصولهم بقليل.
الأعداء الذين يصلون متأخراً في الوقت بدل المناسب.
المتعبين الذين لايجدون حيزاً من الفراغ ليسكبوا حزنهم فيه.
الرتابة التي نغسل بها وجوهنا كل صباح قبل الأون لاين .
الأشغال التي لا تموت ولا تفنى.❑❑

The Leftist
WRITER
The First and Only Multi-Cultural Review in Diaspora
Academic - Political - Ideological - Critical and Cultural

Elie Haj
I hate lying

Issue No. 76 :: February 2023 | Specialized in Written Creativity and Fredom of Thought | العدد رقم 76 :: شباط - فبراير 2023

⌘ أولوية النشر للمواد المرسلة خصيصاً للكاتب اليساري.

⌘ المواد المنشورة في المجلة تعبر عن رأي كاتبيها، وا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة، باستثناء الموقعة باسم رئيس التحرير أو مدراء التحرير.

⌘ مجلة الكاتب اليساري غير تجارية وغير ذات نفع مادي، تغطي تكاليف إصدارها من خلال نشر بعض الاعلانات لمؤسسات أكاديمية وإنسانية وثقافية.

⌘ ترتيب الأسماء والمواد يخضع لاعتبارات فنية ولا علاقة لها باسم أو أهمية الكاتب.

⌘ المراسلات تتم باسم رس التحرير، مع مراعاة ذكر الاسم الكامل والعنوان ورقمم الهاتف.